

نقض افتراءات للتشكيك في مصدريّة القرآن الكريم ودلالته

على نبوة محمد صلى الله عليه
وسلم

د. ربيع أحمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده و الصلاة و السلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فمن سنن الله في خلقه التدافع بين الحق و الباطل و العداة بين أهل الإيمان و أهل الكفر فأعداء الإيمان لا يريدون ظهور الحق، ولا علو الإسلام حتى لا يفضح باطلهم فيعملون جاهدين على التشكيك في الإسلام بشتى الطرق عن طريق قلب الحقائق و المجادلة بالباطل و نشر الأكاذيب و الخرافات و تدعيم الأكاذيب و الخرافات بالأدلة الواهية حتى تصير حقائق مسلمة عند ذوي العقول الضعيفة الجاهلة .

قال الله - سبحانه و تعالى - : ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ (سورة الكهف من الآية 56) أي أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ، أي: يُخَاصِمُونَ الرُّسُلَ بِالْبَاطِلِ، كَقَوْلِهِمْ فِي الرُّسُولِ: سَاحِرٌ، شَاعِرٌ، كَاهِنٌ، وَكَقَوْلِهِمْ فِي الْقُرْآنِ: أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، سِحْرٌ، شِعْرٌ، كِهَانَةٌ، وَكَسْوَائِهِمْ عَنِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَذِي الْقُرْنَيْنِ، وَسْوَائِهِمْ عَنِ الرُّوحِ عِنَادًا وَتَعَنُّتًا، لِيُبْطِلُوا الْحَقَّ بِجِدَائِهِمْ وَخِصَامِهِمْ بِالْبَاطِلِ¹.

والحق واضح ولكن الذين كفروا يجادلون بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه².

¹ - أضواء البيان للشنقيطي 306/3

² - في ظلال القرآن لسيد قطب 4/2276

و قد قيض الله للإسلام من يدافع عنه و يذب عنه فلا تجد فرية افتراها أعداء الإسلام على الإسلام إلا و نجد عشرات بل مئات يردون عليها و يدحضونها بالحجة و البرهان، ولا تجد شبهة يرددها أعداء الإسلام إلا و نجد عشرات بل مئات يدفعونها و يسحقونها بالدليل و البرهان.

و هذا مصداقا لقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (سورة الصف الآية 8) أي يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ ﴾ أي: مَا بَعَثَ بِهِ رَسُولُهُ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، بِمُجَرَّدِ جِدَالِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ، فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُطْفِئَ شُعَاعَ الشَّمْسِ، أَوْ نُورَ الْقَمَرِ بِنَفْسِهِ، وَهَذَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ، فَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ لَأَبْدَأَنَّ أَنْ يُتِمَّ وَيُظْهَرَ ؛ وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُقَابِلًا لَهُمْ فِيمَا رَامُوهُ وَأَرَادُوهُ : ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾³.

و قوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ (سورة الأنبياء من الآية 18) أي بُيِّنَ الْحَقَّ فَيَدْحَضُ الْبَاطِلَ، وَلِهَذَا قَالَ: فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ أَيَّ ذَاهِبٌ مُضْمَجٌ⁴.

و مما افتراه أعداء الإسلام من الباطل قولهم أن القرآن ليس من عند الله و ليس بمعجز و بإمكان البشر الإتيان بمثل القرآن و من ثم لا دليل على نبوة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -.

³ - تفسير ابن كثير 136/4

⁴ - تفسير ابن كثير 294/5

و قد رد القرآن عليهم بما يسحق افتراءهم و بما يشفي صدور المؤمنين، و لم يدع القرآن شبهة للكفار إلا ورد عليها و اقتلع جذورها قال الله - سبحانه و تعالى - ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (سورة الفرقان الآية 33) ولا يأتيك هؤلاء المشركون بصفة غريبة من الصفات التي يقترحونها، ويريدون بها القدح في نبوتك إلا دحضناها بالحق الذي يدفع قولهم ويقطع عروق أسلتهم السخيفة، ويكون أحسن بيانا مما يقولون⁵. أي : وَلَا يَقُولُونَ قَوْلًا يُعَارِضُونَ بِهِ الْحَقَّ، إِلَّا أَجَبْنَاهُمْ بِمَا هُوَ الْحَقُّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَأَبِينُ وَأَوْضَحُ وَأَفْصَحُ مِنْ مَقَالَتِهِمْ⁶.

أي : أنهم كلما جاءوا بمثل أو عرض شبهة يتزل القرآن الكريم بإبطال دعواهم وتفنيدهم كذبهم، وإلغاء شبهتهم، وإحقاق الحق في ذلك وبأحسن تفسير لما اشتبه عليهم واضطربت نفوسهم فيه⁷.

قال الشعراوي - رحمه الله - : « ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أي: بشيء عجيب يستدركون به عليك ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : ردًّا عليهم بالحق الثابت الذي لا جدال فيه⁸.

الدليل على صدق نبوة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -

⁵ - تفسير المراغي 13/19

⁶ - تفسير ابن كثير 99/6

⁷ - أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري 613/3

⁸ - تفسير الشعراوي 8798/14

قال أبو المظفر الإسفراييني : « الدليل على صدق المدعي للنبوة هو المعجزة و المعجزة فعل يظهر على يدي مدعي النبوة بخلاف العادة في زمان التكليف موافقا لدعواه و هو يدعو الخلق إلى معارضته و يتحداهم أن يأتوا بمثله فيعجزوا عنه فيبين به صدق من يظهر على يده ، و ما من رسول من رسل الله تعالى إلا وقد كان مؤيدا بمعجزة أو معجزات كثيرة تدل على صدقه .

و قد أخبر الله تعالى عن كثير منها فذكر في قصة موسى - عليه السلام - فلق البحر و قلب العصا حية و اليد البيضاء و في قصة داود و سليمان تليين الحديد و تسخير الريح و الشياطين و الطيور و جميع دواب الأرض في البر و البحر .

و في قصة عيسى - عليه السلام - إحياء الموتى و إبراء الأكمه و الأبرص .

و ذكر في صفة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - أنه يدعو مخالفه إلى معارضة ما أتى به من القرآن أو سورة منه فقال تعالى ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ فكان القرآن معجزة له قاهرة لأعدائه إلى معجزات كثيرة سواها ظهرت على يده بخلاف العادة مثل تكليم الذراع و تسبيح الحصى في يده و نبوع الماء من بين أصابعه و حنين الجذع عند مفارقتة و إجابة الشجرة عند دعوته و انشقاق القمر في وقته كل ذلك قريب من مائتي معجزة ذكرنا أكثرها في الأوسط كل ذلك مشهور في كتب الأخبار و التواريخ مذكور اتفاق أهل النقل على وجودها و نقولها بطرق يجب القطع على معناها⁹ .

⁹ - التبصير في الدين و تمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين 169-170

و قال فخر الدين الرازي : « الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّهُ ادَّعَى التُّبُوءَ وَظَهَرَتِ الْمَعْجَزَةُ عَلَى يَدِهِ وَكُلٌّ مِنْ كَانَتْ كَذَلِكَ كَانَتْ رَسُولًا حَقًّا فَالْمَقَامُ الْأُولَى أَنَّهُ ادَّعَى التُّبُوءَ وَذَلِكَ مَعْلُومٌ بِالتَّوَاتُرِ وَالمَقَامُ الثَّانِي أَنَّهُ أَظْهَرَ الْمَعْجَزَةَ فَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ وَجُوه :

أحدها : أَنَّهُ ظَهَرَ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ وَالْقُرْآنُ كِتَابٌ شَرِيفٌ بَالِغٌ فِي فَصَاحَةِ اللَّفْظِ وَفِي كَثْرَةِ الْعُلُومِ فَإِنَّ الْمُبَاحِثَ الْإِلَهِيَّةَ وَارِدَةً فِيهِ عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ وَكَذَلِكَ عُلُومُ الْأَخْطَاقِ وَ الْعِلْمِ السِّيَاسَاتِ وَ الْعِلْمِ تَصْفِيَةِ الْبَاطِنِ وَ عِلْمِ أَحْوَالِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَّةِ وَ هَبَّ أَنْ بَعْضُهُمْ نَازِعٌ فِي كَوْنِهِ بِالْغَا فِي الْكَمَالِ إِلَى حَدِّ الْإِعْجَازِ إِلَّا أَنَّهُ لَا نِزَاعَ فِي كَوْنِهِ كِتَابًا شَرِيفًا عَالِيًا كَثِيرَ الْفَوَائِدِ كَثِيرَ الْعُلُومِ فَصِيحًا فِي الْأَلْفَافِ.

ثُمَّ إِنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَشَأَ فِي مَكَّةَ وَتِلْكَ الْبَلَدَةُ كَانَتْ خَالِيَّةً عَنِ الْعُلَمَاءِ وَ الْأَفْضَالِ وَ كَانَتْ خَالِيَّةً عَنِ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ وَ الْمُبَاحِثِ الْحَقِيقِيَّةِ وَأَنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يُسَافِرْ إِلَّا مَرَّتَيْنِ فِي مُدَّةٍ قَلِيلَةٍ ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يُوَاطَبْ عَلَى الْقِرَاءَةِ وَ الْاسْتِفَادَةِ الْبِتَّةِ وَ انْقَضَى مِنْ عَمْرِهِ أَرْبَعُونَ سَنَةً عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ.

ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْأَرْبَعِينَ ظَهَرَ مِثْلَ هَذَا الْكِتَابِ عَلَيْهِ وَ ذَلِكَ مَعْجَزَةٌ قَاهِرَةٌ لِأَنَّ ظُهُورَ مِثْلِ هَذَا الْكِتَابِ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ الْخَالِي عَنِ الْبَحْثِ وَ الطَّلَبِ وَ الْمَطَالَعَةِ وَ التَّعَلُّمِ لَا يُمَكِّنُ إِلَّا بِإِرْشَادِ اللَّهِ تَعَالَى وَ وَحْيِهِ وَ إلهَامِهِ وَ الْعِلْمِ بِهِ ضَرُورِيٌّ وَ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ أَي مِنْ مِثْلِ مُحَمَّدٍ فِي عَدَمِ الْقِرَاءَةِ وَ الْمَطَالَعَةِ وَ عَدَمِ الْاسْتِفَادَةِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَ هَذَا وَجْهٌ قَوِيٌّ وَ بَرَهَانٌ قَاطِعٌ.

الْوَجْهَ الثَّانِي : وَهُوَ أَنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَحَدَى الْعَالَمِينَ بِالْقُرْآنِ فَهَذَا الْقُرْآنُ لَا يَخْلُو أَنَّهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ بَلَغَ إِلَى حَدِّ الْإِعْجَازِ أَوْ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَإِنْ كَانَ بِالْغَا إِلَى حَدِّ الْإِعْجَازِ فَقَدْ حَصَلَ الْمَقْصُودُ وَإِنْ قُلْنَا إِنَّهُ مَا كَانَ بِالْغَا إِلَى حَدِّ الْإِعْجَازِ فَحِينَئِذٍ كَانَتْ مَعَارِضُهُ مُمَكِّنَةً وَمَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْمُعَارِضَةِ وَحُصُولِ مَا يُوجِبُ الرَّغْبَةَ فِي الْإِثْبَانِ بِالْمُعَارِضَةِ يَكُونُ تَرْكُ الْمُعَارِضَةِ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فَيَكُونُ مَعْجَزًا فَتَبَّتْ ظُهُورُ الْمَعْجِزَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ التَّقْدِيرِينَ.

الْوَجْهَ الثَّلَاثِ : أَنَّهُ نَقَلَ عَنْهُ مَعْجِزَاتٌ كَثِيرَةٌ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَإِنْ كَانَ مَرْوِيًا بِطَرِيقِ الْآحَادِ إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ بَعْضُهَا يَصِحُّ لِأَنَّ الْأَخْبَارَ إِذَا كَثُرَتْ فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ فِي الْعَادَةِ أَنْ يَكُونَ كَلِمًا كَذِبًا فَتَبَّتْ بِهِذَا الْوُجُوهَ الثَّلَاثَةَ أَنَّهُ ظَهَرَتْ الْمَعْجِزَةُ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا الْمَقَامَ الثَّانِي : وَهُوَ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ نَبِيًّا فَالِدَلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ الْمَلِكَ الْعَظِيمَ إِذَا حَضَرَ فِي الْمَحْفَلِ الْعَظِيمِ فَقَامَ وَاحِدًا وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنَا رَسُولُ هَذَا الْمَلِكِ إِلَيْكُمْ ثُمَّ قَالَ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِي كَلَامِي فَخَالَفَ عَادَتَكَ وَقَمَّ عَنْ سَرِيرِكَ فَإِذَا قَامَ ذَلِكَ الْمَلِكُ عِنْدَ سَمَاعِ هَذَا الْكَلَامِ عَرَفَ الْحَاضِرُونَ بِالضَّرُورَةِ كَوْنَ ذَلِكَ الْمُدَّعِي صَادِقًا فِي دَعْوَاهُ فَكَذَا هَهُنَا هَذَا تَمَامَ الدَّلِيلِ»¹⁰.

ولو لم يكن للنبي - صَلَّى اللهُ عليه وسلم - معجزة إلا أنه تكلم بجوامع الكلم مع كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب، لكفى ذلك حجة على الكفار بصدق نبوته - صَلَّى اللهُ عليه وسلم -¹¹

¹⁰ - معالم أصول الدين لفخر الدين الرازي ص 99 - 100

¹¹ - شمائل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأحمد زواوي 156/2

إذ ليس أمراً عادياً أن يتحول رجل أمي بين عشية وضحاها إلى معلم بشرية، يبذل العلم للناس، ويقوم علوم السابقين، ويبين ما فيها من تحريف وتغيير¹².

قال القسطلاني - رحمه الله - : « هذا الرسول كان أيضاً أمياً كأتمته المبعوث إليهم، لم يقرأ كتاباً قط ولم يخطه بيمينه، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ ﴾ (سورة العنكبوت الآية 48)، ولا خرج عن ديار قومه فأقام عند غيرهم حتى تعلم منهم، بل لو يزل أمياً بين أمة أمية لا يكتب ولا يقرأ حتى بلغ الأربعين من عمره ، ثم جاء بعد ذلك بهذا الكتاب المبين، وهذه الشريعة الباهرة، وهذا الدين القيم الذي اعترف حذاق الأرض ونظارها أنه لم يقرع العالم ناموس أعظم منه، وفي هذا برهان عظيم على صدقه¹³ » .

يقول أبو عبد الله القرطبي : « ومقصود هذا الكلام أن النبي الرفيع عند الله العظيم القدر لَدَيْهِ كَانَ أُمِّيًّا مَنَسُوبًا إِلَى وِلَادَةِ الْأُمِّ وَمَعْنَى هَذِهِ النَّسْبَةِ أَنَّهُ بَقِيَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ أَي لَمْ يَتَعَلَّمْ عِلْمًا مِنْ أَحَدٍ وَلَا اِكْتَسَبَهُ وَلَا خَطَّ كِتَابًا بِيَمِينِهِ وَهَذَا مَعْرُوفٌ مِنْ حَالِهِ عِنْدَ الْمُؤَافِقِ وَالْمُخَالَفِ .

وَرُبَّمَا كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَحْسِبَ شَيْئًا عَدَدَهُ بِأَصَابِعِهِ فَكَانَ يَقُولُ أَنَا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ الشَّهْرَ هَكَذَا وَهَكَذَا يُشِيرُ بِيَدَيْهِ ثَلَاثًا وَالشَّهْرَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَيَحْنَسُ بِإِحْدَى أَصَابِعِهِ يَعْنِي فِي الثَّلَاثَةِ .

¹² - الرسل والرسالات لعمر الأشقر ص 203

¹³ - المواهب اللدنية بالمنح المحمدية 534/2

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَبِدَائِعَ الْحِكْمِ وَعُلُومَ الْأَوَّلِينَ فَأَخْبِرَ عَنِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ وَالْأُمَمِ السَّالِفَةِ بِأَخْبَارِ هِيَ حَقٌّ عِنْدَ أَرْبَابِ الْعُلُومِ وَلَا يَنَازِعُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِيهَا بَلْ إِذَا سَمِعُوهَا أَذَعَنُوا لِلتَّصْدِيقِ بِهَا وَ لَمْ يَكْذِبُوهُ فِي شَيْءٍ مِنْهَا وَكَذَلِكَ أَخْبَرَ عَنِ الْأُمَمِ الْآتِيَةِ وَالْوَقَائِعِ الْمُنْتَظَرَةِ أَخْبَارًا لَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا بِاِكْتِسَابٍ وَ إِنَّمَا ذَلِكَ بِإِعْلَامِ الْعَلِيمِ الْوَهَّابِ فَجَاءَتْ عَلَى نَحْوِ مَا أَخْبَرَ وَمَا بِهِ بَشْرٌ وَأَنْذَرُ»¹⁴.

و قال الآمدي - رحمه الله - : « و الذي يدل على صحّة رسالته و صدقه في دعوته ما ظهر على يده من المعجزات والآيات الباهرات فمن جُمِلَتْهَا الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ الَّذِي : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ فَإِنْ مِنْ نَظَرٍ بِعَيْنِ الْإِعْتِبَارِ وَلَهُ قَدَمٌ رَاسِخٌ فِي الْإِحْتِبَارِ اعْلَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ أَظْهَرِ الْمَعْجَزَاتِ وَأَبْلَغِ مَا تَخْرُقُ بِهِ الْعَادَاتِ ، وَ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ طَوْقِ الْبَشْرِ وَلَا يُمَكِّنُ تَحْصِيلَهُ بِفِكْرٍ وَلَا نَظْرٍ لِمَا اشْتَمَلَ مِنَ النَّظْمِ الْعَرِيبِ وَ الْأَسْلُوبِ الْمُخَالَفِ لِمَا اسْتَنْبَطَهُ الْبُلْغَاءُ مِنَ الْأَوْزَانِ وَ الْأَسَالِيبِ مَعَ الْجِزَالَةِ وَ الْبَلَاغَةِ وَ جَمَعَ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَعَانِي السَّيِّدَةِ فِي الْأَلْفَافِ الْوَجِيزَةِ الرَّشِيقَةِ »¹⁵.

و النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ظهر بين قبيلة ما كانوا من أهل العلم ومن بلدة ما كان فيها أحد من العلماء في ذلك العصر بل كانت الجهالة غالبة عليهم ولم يتفق له سفر من تلك البلدة إلا مرتين كلاهما إلى الشام وكانت مدة سفر قليلة.

¹⁴ - الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص 298

¹⁵ - غاية المرام في علم الكلام للآمدي ص 342

وَلَمْ يَذْهَبْ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْحُكَمَاءِ إِلَى بَلَدِهِ حَتَّى يُقَالَ أَنَّهُ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ مِنْ ذَلِكَ الْحَكِيمِ
فَإِذَا خَرَجَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْبَلَدَةِ وَمِثْلِ هَذِهِ الْقَبِيلَةِ رَجُلٌ بَارِعٌ الْكَمَالَ فَاتَّقِ عَلَى فُحُولِ
الرِّجَالِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمَارِسَ شَيْئًا مِنَ الْعُلُومِ وَلَا يَخَالِطَ أَحَدًا مِنَ الْعُلَمَاءِ الْبَيْتَةَ.

ثُمَّ بَلَغَ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ هَذَا الْمَبْلَغَ الْعَظِيمَ الَّذِي عَجَزَ
عَنْهُ جَمِيعُ الْأَذْكَيَاءِ مِنَ الْعُقَلَاءِ بَلْ عَجَزُوا عَنِ الْقُرْبِ مِنْهُ وَالْمَدَانَةِ لَهُ بَلْ أَقْرَّ الْكُلِّ بِأَنَّهُ لَا
يُمْكِنُ أَنْ يُزَادَ فِي تَقْرِيرِ أَصُولِ الدَّلَائِلِ وَمَهَمَاتِ الْمَعَارِفِ عَلَى مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

ثُمَّ ذَكَرَ قِصَصَ الْأَوَّلِينَ وَتَوَارِيخَ الْمُتَقَدِّمِينَ بِحَيْثُ لَمْ يَتِمَّكَنْ أَحَدٌ مِنَ الْأَعْدَاءِ الْعَارِفِينَ بِذَلِكَ
أَنْ يَخْطئه فِي شَيْءٍ مِنْهَا بَلْ بَلَغَ كَلَامُهُ فِي الْبَعْدِ مِنَ الرِّيبِ إِلَى أَنْ قَالَ بِذَلِكَ أَنْ يَخْطئه فِي
شَيْءٍ مِنْهَا بَلْ بَلَغَ كَلَامُهُ فِي الْبَعْدِ مِنَ الرِّيبِ إِلَى أَنْ قَالَ عِنْدَ مَجَادِلَتِهِمْ لَهُ : ﴿ تَعَالَوْا نَدْعُ
أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهَلْ فَتَجْعَلَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ
﴾

فَحَادُوا عَنْ ذَلِكَ وَعَرَفُوا صَدَقَهُ وَاجَابَةَ دَعْوَتِهِ وَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ مِنْ أَعْدَائِهِ أَنْ يَنْسِبَ إِلَيْهِ أَنَّهُ
أَخَذَ ذَلِكَ مِنْ مِطَالَعَةِ كِتَابٍ وَلَا صُحْبَةِ أَسْتَاذٍ وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ ظَاهِرَةً مَعْلُومَةً عِنْدَ
الْأَصْدِقَاءِ وَالْأَعْدَاءِ وَالْقُرْبَاءِ وَالْبَعْدَاءِ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ
فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطئه بِيَمِينِكَ إِذَا
لَارْتَابَ الْمُبْطَلُونَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عَمْرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ وَكُلٌّ مِنْ لَهُ
عَقْلٌ سَلِيمٌ وَطَبْعٌ مُسْتَقِيمٌ عِلْمٌ أَنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ لَا تَتَيَسَّرُ إِلَّا بِالْتَعْلِيمِ الْإِلَهِيِّ وَالتَّوْفِيقِ الرَّبَّانِيِّ

16

16 - إيتار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق لابن الوزير ص 80

و من أدلة صدقه أنه عَلَيْهِ - صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ قَبْلَ إِظْهَارِهِ دَعْوَى الرِّسَالَةِ غَيْرَ بَاحِثٍ عَنِ هَذِهِ الْأُمُورِ وَلَا مَشْغُولٍ بِهَا وَلَا جَرَى عَلَى لِسَانِهِ حَدِيثَ النَّبُوَّةِ لِنَفْسِهِ وَدَعْوَى الرِّسَالَةِ وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ اتَّفَقَ لَهُ خَوْضٌ فِي هَذِهِ الْمَطَالِبِ لَقَالَ الْكُفَّارُ أَنَّهُ أَفْنَى عَمْرِهِ فِي ذَلِكَ وَفِي جَمْعِ الْقُرْآنِ حَتَّى قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ بَعْدَ طَوْلِ التَّأَمُّلِ وَالتَّدْبِيرِ وَجَاءَ بِهِ.

وَمَا لَمْ يَذْكَرْ هَذَا عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ مَعَ شِدَّةِ حِرْصِهِمْ عَلَى الطَّعْنِ فِيهِ وَفِي نُبُوَّتِهِ عِلْمَنَا ذَلِكَ وَمَعْلُومٌ أَنَّ مِنْ انْقِضَى مِنْ عَمْرِهِ أَرْبَعُونَ سَنَةً وَلَمْ يَخْضُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمَطَالِبِ ثُمَّ أَنَّهُ خَاضَ فِيهَا دَفْعَةً وَاحِدَةً وَأَتَى بِكَلَامٍ عَجَزَ الْأُولُونَ وَالْآخِرُونَ عَنْ مَعَارَضَتِهِ فَصَرِيحَ الْعَقْلِ يَشْهَدُ بِأَنَّ هَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى¹⁷.

و النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - نشأ أمياً، لا يقرأ ولا يكتب، ومات كذلك و كان في بلاد جهل ولم يخرج عن تلك البلاد قط إلا خرجتین: إحداهما إلى الشام و هو صبي مع عمه إلى أول أرض الشام ورجع؛ والأخرى أيضا إلى أول الشام، ولم يطل بها البقاء، ولا فارق قومه قط.

و قد عرف عند قومه جميعاً بالصدق والأمانة، ولم يكن على علم بشيء من الدين، ولا الرسائل السابقة، ومكث على هذا أربعين سنة من عمره، ثم أتى بدين الإسلام و نزل عليه القرآن و قد جاء هذا القرآن بمعظم أخبار الرسائل السابقة وقص أخبارها بأدق تفاصيلها كأنه عايشها، وجاءت هذه الأخبار تماماً كما هو موجود في التوراة التي أنزلت على موسى، والإنجيل الذي أنزل على عيسى.

¹⁷ - إيتار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق لابن الوزير ص 81

ولو وجد اليهود والنصارى في القرآن خلاف ما عندهم من الأخبار لروجوا ذلك و شنعوا فقد كانوا يتربصون به الدوائر، وقد عودي صلى الله عليه وسلم ثم مكنه الله رقاب العرب كلها، فلم تتغير نفسه، ولا تغيرت سيرته، إلى أن مات ودرعه مرهونة في شعير لقوت أهله أصواع ليست بالكثيرة ولم يبيت قط في ملكه دينار ولا درهم.

و قد مات النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد أن علم الدنيا كيف تعبد ربها و اخرج العباد من جور الأديان إلى عدل الإسلام، و آخى بين المسلمين و بين للناس ما يصلح دينهم و دنياهم فهل وجد في البشرية من وضع للبشر علوما تصلحهم دينا و دنيا أفرادا و جماعات و شعوب ثم يكون هو الذي يتولى تنفيذها و إصلاح أمة كبيرة بها و يتم له النجاح في ذلك بنفسه في عصره؟!!!

وهل وجد أحد من البشر قد وحد أمة مثل العرب خلال عشر سنوات، والأمة العربية و قتلت كانت أكثر الأمم شقاقا و تفرقة و عداوا و كثر فيها شرب الخمر و الزنا و القتل والنهب؟!!!

و لم يكن النبي محمد - عليه الصلاة والسلام - موحدا فقط فهناك محمد النبي و محمد القائد و محمد الملك و محمد المقاتل و محمد التاجر و محمد الواعظ أو البشير و محمد الحكيم و محمد رجل الدولة و محمد الخطيب و محمد المصلح و المجدد و محمد ملاذ اليتامى و محمد حامي العبيد (الرقيق) و المدافع عنهم و محمد محرر النساء و محمد القاضي.

و عظمة شخصيته - صلى الله عليه وسلم - تكمن في تنقية و تطهير أمة مشربة بالهمجية و التخلف و منغمسة في ظلام أخلاقي مطلق، و ينهض بأمة بأكملها غارقة في الحضيض - كما كان حال العرب - و يجعلهم حملة مشاعل الحضارة و المدنية و التعليم ، و تكمن عظمة

شخصيته - صلى الله عليه وسلم - أيضا في توحيد العناصر المتنافرة والمتضاربة والمتشاكسة والمختلفة في المجتمع برابطة الأخوة والإحسان، والخلاصة أن اتحاد صفة وضع النظريات والتنظيم والقيادة والدعوة إلى الله و دعوى النبوة لدليل ساطع على صدق نبوته - عليه الصلاة والسلام -.

و لرسولنا - صلى الله عليه وسلم - أعمالاً كبرى يتمثل فيها نجاحه في دعوته، وهذه الأعمال يمكن تلخيصها فيما يلي :

العمل الأول : أنه - صلى الله عليه وسلم - قضى على الوثنية، وأحل محلها الإيمان بالله واليوم الآخر.

العمل الثاني : أنه - صلى الله عليه وسلم - قضى على رذائل الجاهلية ونقائصها، و أقام مقامها الفضائل والمكارم والآداب.

العمل الثالث : أنه - صلى الله عليه وسلم - أقام الدين الحق الذي يصل بالإنسان إلى أقصى ما قدر له من كمال.

العمل الرابع: أنه - صلى الله عليه وسلم - أحدث ثورة كبرى غيرت الأوضاع، والعقول، والقلوب، ونظام الحياة الذى درج عليه أهل الجاهلية.

العمل الخامس: أنه - صلى الله عليه وسلم - وحد الأمة العربية، وأقام دولة كبرى تحت راية القرآن الكريم .

هذه هي الأعمال التي تمثل نجاح الرسول - صلى الله عليه وسلم - في مهمته؛ وهي كما تبدو كلها أمور كبيرة، وإقامتها، بل إقامة واحد منها، من الخطورة بمكان.

وإنه لا يمكن أن يتأتى النجاح لفرد في بعض هذه الأعمال، فضلاً عن توفر النجاح في كل ناحية من هذه النواحي.

إن القيام بهذه الأعمال والنجاح فيها على هذا النحو، هو المعجزة الكبرى لحضرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؛ فإذا كان عيسى - عليه السلام - له معجزة إحياء الموتى ، و موسى - عليه السلام - له معجزة العصا، فإن هاتين المعجزتين في جانب هذه الانتصارات، وإلى جانب هذه المعجزات، لا تساوى شيئاً¹⁸.

و مما يؤيد صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه من العيب أن يعرض شخص نفسه للقتل والتشريد والهلاك من أجل إدعاء كاذب، و النبي - صلى الله عليه وسلم - عرض نفسه للقتل والتشريد والهلاك و لا يريد من ذلك إلا نشر التوحيد و عبادة الله و التحلي بمكارم الأخلاق .

فرية أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن أمياً

يردد بعض المغرضين أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن أمياً، و هذا باطل يخالف ما في السنة و الكتاب ففي القرآن ما يدل على أميته - صلى الله عليه وسلم - قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ (سورة الأعراف من الآية 157)

و أكثر المفسرين أن الأمي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ ، وقد وصف الله - سبحانه و تعالى - النبي - صلى الله عليه وسلم - بالأمي؛ لأنه لم يقرأ كتاباً، ولا تعلم الكتابة.

¹⁸ - العقائد الإسلامية لسيد سابق ص 201

قال الزجاج - رحمه الله - : « الأُمِّيُّ : هو على خلقة الأُمَّة، لم يتعلم الكتاب فهو على جِبَلَّتِهِ »¹⁹.

وقال الطبري - رحمه الله - : « "الأُمِّي" عند العرب : هو الذي لا يكتب »²⁰.

وقال الواحدي - رحمه الله - : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ وهو الذي لا يكتب ولا يقرأ »²¹.

وقال البغوي - رحمه الله - : « وَأَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ عَلَى نَبِيِّ أُمِّيٍّ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ »²².

وقال ابن عطية - رحمه الله - : « والأُمِّي في اللغة الذي لا يكتب ولا يقرأ في كتاب، نسب إلى الأم: إما لأنه بحال أمه من عدم الكتاب لا بحال أبيه، إذ النساء ليس من شغلهن الكتاب، قاله الطبري، وإما لأنه بحال ولدته أمه فيها لم ينتقل عنها، وقيل نسب إلى الأمة وهي القامة والخلقة، كأنه ليس له من الآدميين إلا ذلك »²³.

¹⁹ - معاني القرآن للزجاج 381/2

²⁰ - تفسير الطبري 259/2

²¹ - الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي 416/1

²² - تفسير البغوي 445/3

²³ - تفسير ابن عطية 169/1

و قال ابن عطية - رحمه الله - أيضا : « وَالْمُؤْمِنِينَ: يراد بهم العرب، والأُمِّي في اللغة الذي لا يكتب ولا يقرأ كتابا، قيل هو منسوب إلى الأُم، أي هو على الحلقة الأولى في بطن أمه، وقيل هو منسوب إلى الأمة، أي على سليقة البشر دون تعلم، وقيل منسوب إلى أم القرى وهي مكة وهذا ضعيف؛ لأن الوصف بـ (الْمُؤْمِنِينَ) على هذا يقف على قريش، وإنما المراد جميع العرب »²⁴.

و قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِارْتَابِ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (سورة العنكبوت الآية 48)

يقول الطبري : « يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : ﴿ وَمَا كُنْتَ ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿ تَتْلُو ﴾ يَعْنِي تَقْرَأُ ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ يَعْنِي مِنْ قَبْلِ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ إِلَيْكَ ﴿ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ يَقُولُ: وَلَمْ تَكُنْ تَكْتُبُ بِيَمِينِكَ، وَلَكِنَّكَ كُنْتَ أُمِّيًّا ﴿ إِذَا لِارْتَابِ الْمُبْطِلُونَ ﴾ يَقُولُ: وَلَوْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُوحَى إِلَيْكَ تَقْرَأُ الْكِتَابَ، أَوْ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ، إِذَنْ لِارْتَابِ: يَقُولُ: إِذَنْ لَشَكَّ بِسَبَبِ ذَلِكَ فِي أَمْرِكَ، وَمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي تَتْلُوهُ عَلَيْهِمُ الْمُبْطِلُونَ ، الْقَائِلُونَ: إِنَّهُ سَجَّعَ وَكَهَانَةٌ، وَإِنَّهُ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ. وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ »²⁵.

²⁴ - تفسير ابن عطية 306/5

²⁵ - تفسير الطبري 424/18

قال حسين المالكي : « و قوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ﴾ (سورة العنكبوت من الآية 48) أي : و ما كنت تقرأ قبل هذا القرآن ، الذي تسنم من قمة البلاغة وقمة الفصاحة أرفع مكان.

﴿ مِنْ كِتَابٍ ﴾ حتى يتعلق المرتاب بعلاقة الشبهة والارتباب.

﴿ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ ﴾ أي: ولم تكن تكتب شيئاً بيدك، وهو محو للشبهة الزائفة، وتقرير للمعجزة النائفة ولكن كما قال : ﴿ مَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالتَّنْذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة نوس من الآية 101) ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (سورة النساء من الآية 82).

فإن ظهور هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم الشريفة على من لم يعرف قبله بالقراءة والخط والتعليم خارق للعادة.

﴿ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (سورة العنكبوت من الآية 48) أي : و لو كنت ممن يخط ويقرأ لقالوا: لعله تعلمه أو التقطه من كتب الأولين ، و سماهم لكفرهم مبطلين .

و قيل : لارتاب أهل الكتاب لوجدناهم نعتك على خلاف ما في كتبهم مقرر ، فيكون إبطاهم باعتبار الواقع دون المقدر²⁶ .

²⁶ - العقد الثمين في شرح أحاديث أصول الدين ص 200

و قال الشيخ البراك - حفظه الله - : « وتأمل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (سورة العنكبوت الآية 48) فمن أدلة صدقه - صلى الله عليه وسلم - إنه جاء بهذا الكتاب العظيم، وهو - صلى الله عليه وسلم - أمي لا يقرأ ولا يكتب؛ بل يكتبُ ويقرأُ له أصحابُه - رضي الله عنهم - .

فكونه بهذه المثابة من الصدق، والأمانة، والطهر، والشرف، والفضائل، ولا يقرأ، ولا يكتب، ولا اتصل بأحد يمكن أن يتلقى عنه، ثم يأتي بهذا القرآن العظيم المحكم؛ هذا أعظم دليل على صدقه ²⁷ .

و قال الزحيلي - حفظه الله - : « ولم تكن أيها النبي قبل النبوة تقرأ شيئاً من الكتب، ولا تعرف الكتابة و لا القراءة، ولا تستطيع أن تخطّ سطراً من الكتاب بيمينك، فأنت خالي الذهن ، لم تشرب بشيء سابق، ولو كنت قارئاً وكاتباً ، لشكّ المشركون الجهلة فيما نزل إليك، وادّعوا أنه مأخوذ من كتب سابقة.

وإذ لم تكن كاتباً ولا قارئاً ولا سبيل لك إلى التعلم، فلا وجه لارتباب كل من عاداك، فأهل الباطل هم المتمسكون بالضلالات الموروثة، والانحرافات الشائعة ²⁸ .

و عن ابنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا » يَعْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ ، وَمَرَّةً ثَلَاثِينَ ²⁹ .

²⁷ - شرح العقيدة الطحاوية للبراك ص 90

²⁸ - التفسير الوسيط للزحيلي 1971/3

²⁹ - رواه البخاري في صحيحه 27/3 حديث رقم 1913 ، ورواه مسلم في صحيحه 761/2 حديث رقم

1080 ، واللفظ للبخاري

و قد رد ابن كثير على فرية من زعم أن النبي قد تعلم الكتابة فقال : « وَمَنْ زَعَمَ مِنْ مُتَأَخَّرِي الْفُقَهَاءِ ، كَالْقَاضِي أَبِي الْوَلِيدِ الْبَاجِيِّ وَمَنْ تَابَعَهُ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، كَتَبَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ : "هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ" فَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ رَوَايَةٌ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ : "ثُمَّ أَخَذَ فَكَتَبَ" : وَهَذِهِ مَحْمُولَةٌ عَلَى الرَّوَايَةِ الْآخَرَى : "ثُمَّ أَمَرَ فَكَتَبَ" .

وَلِهَذَا اشْتَدَّ التَّكْيِيرُ بَيْنَ فُقَهَاءِ الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ عَلَى مَنْ قَالَ بِقَوْلِ الْبَاجِيِّ ، وَتَبَرَّؤُوا مِنْهُ ، وَأَنْشَدُوا فِي ذَلِكَ أَقْوَالَ وَخَطَبُوا بِهِ فِي مَحَافِلِهِمْ : وَإِنَّمَا أَرَادَ الرَّجُلُ -أَعْنِي الْبَاجِيَّ- ، فِيمَا يَظْهَرُ عَنْهُ -أَنَّهُ كَتَبَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْمُعْجَزَةِ ، لَأَنَّه كَانَ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ ، كَمَا قَالَ ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِخْبَارًا عَنِ الدَّجَالِ : "مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ" وَفِي رَوَايَةٍ : "ك ف ر ، يَقْرُؤُهَا كُلُّ مُؤْمِنٍ " ، وَمَا أوردَهُ بَعْضُهُمْ مِنَ الْحَدِيثِ أَنَّهُ لَمْ يَمْتَ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى تَعَلَّمَ الْكِتَابَةَ ، فَضَعِيفٌ لَأَصْلَ لَهُ «³⁰ .

و قال ابن كثير أيضا : « وقد زعم بعضهم أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يمت حتى تعلم الكتابة، وهذا قول لا دليل عليه، فهو مردود، إلا مارواه البيهقي من حديث أبي عقيل يحيى بن المتوكل، عن مجالد، عن عون بن عبد الله، عن أبيه قال : لم يمت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى كتب وقرأ.

³⁰ - تفسير ابن كثير 286/6

وقال مجالد : فذكرت ذلك للشعبي فقال : قد صدق، سمعت من أصحابنا يذكرون ذلك،
ويجي هذا ضعيف، و مجالد فيه كلام.

وهكذا ادعى بعض علماء المغرب أنه كتب- صلى الله عليه وسلم - صلح الحديبية، فأنكر ذلك عليه أشد الإنكار وتبرئ من قائله على رؤوس المنابر، وعملوا فيه الأشعار، وقد غره في ذلك ما جاء في بعض روايات البخاري: " فأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله.."، وقد علم أن المقيد يقضي على المطلق، ففي الرواية الأخرى : " فأمر علياً فكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - " «³¹.

و قال ابن حجر- رحمه الله - : « قَوْلُهُ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْكِتَابَ وَلَيْسَ يُحْسِنُ يَكْتُبُ فَكَتَبَ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ تَقَدَّمَ هَذَا الْحَدِيثُ فِي الصُّلْحِ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مُوسَى بِهَذَا الْإِسْنَادِ وَلَيْسَتْ فِيهِ هَذِهِ اللَّفْظَةُ لَيْسَ يُحْسِنُ يَكْتُبُ.

وَلِهَذَا أَنْكَرَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ عَلَى أَبِي مَسْعُودٍ نَسَبَتَهَا إِلَى تَخْرِيجِ الْبُخَارِيِّ وَقَالَ لَيْسَ فِي الْبُخَارِيِّ هَذِهِ اللَّفْظَةُ وَلَا فِي مُسْلِمٍ وَهُوَ كَمَا قَالَ عَنْ مُسْلِمٍ فَإِنَّهُ أَخْرَجَهُ مِنْ طَرِيقِ زَكَرِيَّا بْنِ أَبِي زَائِدَةَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ بَلْفَظٍ فَأَرَاهُ مَكَانَهَا فَمَحَاهَا وَكَتَبَ بِنِ عَبْدِ اللَّهِ انْتَهَى وَقَدْ عَرَفْتُ ثُبُوتَهَا فِي الْبُخَارِيِّ فِي مَطْنَةِ الْحَدِيثِ.

³¹ - الفصول في السيرة لابن كثير ص 296

وَكَذَلِكَ أَخْرَجَهَا النَّسَائِيُّ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مُوسَى مِثْلَ مَا هُنَا سِوَاءً
وَكَذَا أَخْرَجَهَا أَحْمَدُ عَنْ حُجَيْنِ بْنِ الْمَثْنَى عَنْ إِسْرَائِيلَ وَلَفْظُهُ فَأَخَذَ الْكِتَابَ وَلَيْسَ يُحْسِنُ
أَنْ يَكْتُبَ فَكُتِبَ مَكَانَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ
عَبْدِ اللَّهِ.

وَقَدْ تَمَسَّكَ بِظَاهِرِ هَذِهِ الرَّوَايَةِ أَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِيُّ فَادَّعَى أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
- كَتَبَ بِيَدِهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ يُحْسِنُ يَكْتُبُ فَشَنَعَ عَلَيْهِ عُلَمَاءُ الْأَنْدَلُسِ فِي زَمَانِهِ وَرَمَوْهُ
بِالزُّنْدَاقَةِ وَأَنَّ الَّذِي قَالَهُ مُخَالَفَ الْقُرْآنِ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ بَرِئْتُ مِمَّنْ شَرَى دُنْيَا بِأَخْرَجَةٍ وَقَالَ
إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ كَتَبَ.

فَجَمَعَهُمُ الْأَمِيرُ فَاسْتَظْهَرَ الْبَاجِيَّ عَلَيْهِمْ بِمَا لَدَيْهِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَقَالَ لِلْأَمِيرِ هَذَا لَا يُنَافِي
الْقُرْآنَ بَلْ يُؤْخِذُ مِنْ مَفْهُومِ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُ قَيَّدَ النَّفْيَ بِمَا قَبْلَ وَرُودِ الْقُرْآنِ فَقَالَ وَمَا كُنْتُ
تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ وَبَعْدَ أَنْ تَحَقَّقْتُ أُمِّيَّتَهُ وَتَقَرَّرْتُ بِذَلِكَ مُعْجَزَتُهُ
وَأَمِنَ الْإِرْتِيَابَ فِي ذَلِكَ لَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يَعْرِفَ الْكِتَابَةَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمٍ فَتَكُونُ مُعْجَزَةً
أُخْرَى.

وَذَكَرَ بِنِ دِحْيَةَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ وَافْتَقَرُوا الْبَاجِيَّ فِي ذَلِكَ مِنْهُمْ شَيْخُهُ أَبُو ذَرٍّ الْهَرَوِيُّ
وَأَبُو الْفَتْحِ النَّيْسَابُورِيُّ وَآخَرُونَ مِنْ عُلَمَاءِ إِفْرِيقِيَّةٍ وَغَيْرِهَا وَاحْتَجَّ بَعْضُهُمْ لِذَلِكَ بِمَا
أَخْرَجَهُ بِنِ أَبِي شَيْبَةَ وَعَمْرُ بْنُ شَبَّةٍ مِنْ طَرِيقِ مُجَاهِدٍ عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : مَا مَاتَ
رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَتَّى كُتِبَ وَقُرَأَ.

قَالَ مُجَاهِدٌ فَذَكَرْتُهُ لِلشَّعْبِيِّ فَقَالَ صَدَقَ قَدْ سَمِعْتُ مَنْ يَذْكُرُ ذَلِكَ وَمِنْ طَرِيقِ يُوسُفَ بْنِ مَيْسَرَةَ عَلَى أَبِي كَبْشَةَ السُّلُولِيِّ عَنْ سَهْلِ بْنِ الْحَنْظَلِيَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَمَرَ مُعَاوِيَةَ أَنْ يَكْتُبَ لِلأَفْرَعِ وَعُيَيْنَةَ فَقَالَ عُيَيْنَةُ أَتَرَانِي أَذْهَبُ بِصَحِيفَةِ الْمُتَمَلِّسِ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الصَّحِيفَةَ فَنَظَرَ فِيهَا فَقَالَ قَدْ كَتَبَ لَكَ بِمَا أَمَرَ لَكَ قَالَ يُوسُفُ فَتَرَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَتَبَ بَعْدَ مَا أُنزِلَ عَلَيْهِ.

قَالَ عِيَاضٌ وَرَدَتْ آثَارٌ تَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَةِ حُرُوفِ الخَطِّ وَحُسْنِ تَصْوِيرِهَا كَقَوْلِهِ لِكَاتِبِهِ ضَعِ القَلَمَ عَلَى أُذُنِكَ فَإِنَّهُ أَذْكَرُ لَكَ وَقَوْلِهِ لِمُعَاوِيَةَ أَلْقِ الدَّوَاةَ وَحَرِّفِ القَلَمَ وَأَقِمِ البَاءَ وَفَرِّقِ السَّيْنَ وَلَا تَعُورِ المِيمَ وَقَوْلُهُ لَا تَمُدَّ بِسْمِ اللَّهِ قَالَ وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَثْبُتْ أَنَّهُ كَتَبَ فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُرْزَقَ عِلْمَ وَضَعِ الكِتَابَةَ فَإِنَّهُ أُوتِيَ عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ.

وَأَجَابَ الجُمهُورُ بِضَعْفِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ وَعَنْ قِصَّةِ الحُدَيْبِيَّةِ بَأَنَّ القِصَّةَ وَاحِدَةٌ وَالكَاتِبُ فِيهَا عَلِيٌّ وَقَدْ صَرَحَ فِي حَدِيثِ المَسُورِ بَأَنَّ عَلِيًّا هُوَ الَّذِي كَتَبَ فَيُحْمَلُ عَلَى أَنَّ النُّكْتَةَ فِي قَوْلِهِ فَأَخَذَ الكِتَابَ وَكَيْسَ يُحْسِنُ يَكْتُبُ لِبَيَانِ أَنَّ قَوْلَهُ: أَرِنِي إِيَّاهَا أَنَّهُ مَا احتَاجَ إِلَى أَنْ يُرِيَهُ مَوْضِعَ الكَلِمَةِ الَّتِي امْتَنَعَ عَلَيٌّ مِنْ مَحْوِهَا إِلَّا لِكَوْنِهِ كَانَ لَا يُحْسِنُ الكِتَابَةَ وَعَلَى أَنَّ قَوْلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَكُتِبَ فِيهِ حَذْفٌ تَقْدِيرُهُ فَمَحَاهَا فَأَعَادَهَا لِعَلِيٍّ فَكُتِبَ.

وَبِهَذَا جَزَمَ بن التَّيْنِ وَأَطْلَقَ كَتَبَ بِمَعْنَى أَمَرَ بِالكِتَابَةِ وَهُوَ كَثِيرٌ كَقَوْلِهِ كَتَبَ إِلَى قَيْصَرَ وَكَتَبَ إِلَى كِسْرَى وَعَلَى تَقْدِيرِ حَمَلِهِ عَلَى ظَاهِرِهِ فَلَا يَلْزَمُ مِنْ كِتَابَةِ اسْمِهِ الشَّرِيفِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ وَهُوَ لَا يُحْسِنُ الكِتَابَةَ أَنْ يَصِيرَ عَالِمًا بِالكِتَابَةِ وَيَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهِ أُمِّيًّا.

فَإِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ يَعْرِفُ تَصَوُّرَ بَعْضِ الْكَلِمَاتِ وَيَحْسِنُ وَضْعَهَا بِيَدِهِ وَخُصُوصًا الْأَسْمَاءَ وَلَا يَخْرُجُ بِذَلِكَ عَنْ كَوْنِهِ أُمِّيًّا ككَثِيرٍ مِنَ الْمُلُوكِ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ جَرَتْ يَدُهُ بِالْكِتَابَةِ حِينَئِذٍ وَهُوَ لَا يُحْسِنُهَا فَخَرَجَ الْمَكْتُوبُ عَلَى وَفْقِ الْمُرَادِ فَيَكُونُ مُعْجَزَةً أُخْرَى فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ خَاصَّةً وَلَا يَخْرُجُ بِذَلِكَ عَنْ كَوْنِهِ أُمِّيًّا وَبِهَذَا أَجَابَ أَبُو جَعْفَرٍ السَّمَنَانِيُّ أَحَدَ أَيْمَّةِ الْأُصُولِ مِنَ الْأَشَاعِرَةِ وَتَبِعَهُ بِنِ الْجَوْزِيِّ وَتَعَقَّبَ ذَلِكَ السُّهَيْلِيُّ وَغَيْرُهُ بِأَنَّ هَذَا وَإِنْ كَانَ مُمَكِّنًا وَيَكُونُ آيَةً أُخْرَى لَكِنَّهُ يُنَاقِضُ كَوْنَهُ أُمِّيًّا لَا يَكْتُبُ وَهِيَ الْآيَةُ الَّتِي قَامَتْ بِهَا الْحُجَّةُ وَأُفْحِمَ الْجَاهِدُ وَالْحَسَمَتِ الشُّبْهَةَ.

فَلَوْ جَازَ أَنْ يَصِيرَ يَكْتُبُ بَعْدَ ذَلِكَ لَعَادَتِ الشُّبْهَةُ وَقَالَ الْمُعَانِدُ كَانَ يُحْسِنُ يَكْتُبُ لَكِنَّهُ كَانَ يَكْتُمُ ذَلِكَ قَالَ السُّهَيْلِيُّ وَالْمُعْجَزَاتُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَدْفَعَ بَعْضُهَا بَعْضًا.

وَالْحَقُّ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ فَكَتَبَ أَيُّ أَمْرٍ عَلِيًّا أَنْ يَكْتُبَ انْتَهَى وَفِي دَعْوَى أَنْ كِتَابَةَ اسْمِهِ الشَّرِيفِ فَقَطُّ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ تَسْتَلْزِمُ مُنَاقِضَةَ الْمُعْجَزَةِ وَتُثَبِتُ كَوْنَهُ غَيْرَ أُمِّيٍّ نَظْرًا كَبِيرًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ³².

و قال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على قول إبراهيم النخعي : " منهم من لا يحسن أن يكتب " في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ ﴾ (سورة البقرة من الآية 78) : « قوله " لا يحسن أن يكتب " نفى لمعرفة الكتابة، لا لجودة معرفة الكتابة ، كما يسبق إلى الوهم.

³² - فتح الباري لابن حجر 5/503-504

و قديما قام بعض أساتذتنا يدعي أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، كان يعرف الكتابة ، ولكنة لا يحسنها ، لخبر استدل به هو - أو اتبع فيه من استدل به من أعاجم المستشرقين - .

وهو ما جاء في تاريخ الطبري 3: 80 في شرح قصة الحديدية، حين جاء سهيل بن عمرو، لكتابة الصلح.

روى الطبري عن البراء بن عازب قال : .. فلما كتب الكتاب، كتب: "هذا ما تقاضى عليه محمد رسول الله"، فقالوا لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك ، ولكن أنت محمد بن عبد الله. قال : أنا رسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله. قال لعلي : امح "رسول الله". قال : لا والله لا أمحك أبدا . فأخذه رسول الله وليس يحسن يكتب: "فكتب مكان "رسول الله" "محمد"، فكتب: " هذا ما قاضى عليه محمد".

فظن أولا أن ضمير الفاعل في قوله "فكتب مكان "رسول الله" - محمد"، هو رسول الله - صلى الله عليه - . وليس كذلك بل هو: علي بن أبي طالب الكاتب.

وفي الكلام اختصار، فإنه لما أمر عليا أن يمحو الكتاب فأبى، أخذه رسول الله، وليس يحسن يكتب، فمحاها. وتفسير ذلك قد أتى في حديث البخاري عن البراء بن عازب أيضا 3: 184: "فقال لعلى" امحه. فقال على: ما أنا بالذي أمحاها فمحاها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيده ."

و أخرى أنه أخطأ في معنى "يحسن"، فإنها هنا بمعنى "يعلم"، وهو أدب حسن في العبارة، حتى لا ينفي عنه العلم.

وقد جاء في تفسير الطبري 21: 6 في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ (سورة السجدة من الآية 7)، ما نصه: "معنى ذلك: أعلم كل شيء خلقه. كأنهم وجهوا تأويل الكلام إلى أنه أهما كل خلقه ما يحتاجون إليه.

وأن قوله: "أحسن"، إنما هو من قول القائل: "فلا يحسن كذا"، إذا كان يعلمه". هذا، والعرب تتأدب بمثل هذا، فتضع اللفظ مكان اللفظ؛ وتبطل بعض معناه، ليكون ترتيبها للسان، أو تكرمه للذي تخبر عنه.

فمعنى قوله: "ليس يحسن يكتب"، أي ليس يعرف يكتب. وقد أطل السهيلي في الروض الأنف 1: 230 بكلام ليس يعني في تفسير هذا الكلمة»³³.

و قد يستدل بعض المغرضين بما رواه البخاري عن ابن عباس أنه لما حضر النبي - عليه السلام - وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده " لكن هذا من قبيل بني الملك أي أمر بالبناء و كتب الملك أي أمر بالكتابة، و كسى الملك الكعبة أي أمر بكسوة الكعبة، و الناس لم تنزل تقول : قتل الأمير ، و كتب الأمير و جلد و ضرب، و إنما تقصد أنه وجه بذلك وأمر به، من غير أن يفهم السامع أنه فعله بنفسه.

³³ - هامش تفسير الطبري ص 258/2 بتحقيق الشيخ أحمد شاكر

و الأُمِّي في لغة العرب هو من لا يقرأ و لا يكتب قال ابن منظور : « والأُمِّيّ : الَّذِي لَا يَكْتُبُ، قَالَ الرَّجَّاجُ : الأُمِّيُّ الَّذِي عَلَى خِلْقَةِ الأُمَّةِ لَمْ يَتَعَلَّمِ الكِتَابَ فَهُوَ عَلَى جِبَلَّتِهِ ، وَفِي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي ﴾ .

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ : مَعْنَى الأُمِّيِّ المَنْسُوبِ إِلَى مَا عَلَيْهِ جِبَلَّتُهُ أُمُّهُ أَيُّ لَا يَكْتُبُ، فَهُوَ فِي أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ أُمِّيٌّ؛ لِأَنَّ الكِتَابَةَ هِيَ مُكْتَسَبَةٌ فَكَأَنَّهُ نُسِبَ إِلَى مَا يُوَلَدُ عَلَيْهِ أَيُّ عَلَى مَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ عَلَيْهِ ، وَكَانَتْ الكِتَابُ فِي العَرَبِ مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ تَعَلَّمُوهَا مِنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الحَيْرَةِ، وَأَخَذَهَا أَهْلُ الحَيْرَةِ عَنِ أَهْلِ الأَثْبَارِ.

و فِي الحَدِيثِ : " إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ "، أَرَادَ أَنَّهُمْ عَلَى أَصْلِ وِلَادَةِ أُمَّهَاتِهِمْ لَمْ يَتَعَلَّمُوا الكِتَابَةَ وَ الحِسَابَ، فَهُمُ عَلَى جِبَلَّتِهِمُ الأُولَى. وَ فِي الحَدِيثِ : " بُعِثْتُ إِلَى أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ "

قِيلَ لِلعَرَبِ الأُمِّيُونَ؛ لِأَنَّ الكِتَابَةَ كَانَتْ فِيهِمْ عَزِيزَةً أَوْ عَدِيمَةً؛ وَ مِنْهُ قَوْلُهُ : ﴿ بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ 34 .

و قَالَ الزَّبِيدِيُّ أَنَّ الأُمِّيَّ هُوَ : « مَنْ لَا يَكْتُبُ، أَوْ مِنْ عَلَى خِلْقَةِ الأُمَّةِ لَمْ يَتَعَلَّمِ الكِتَابَ وَهُوَ بَاقٍ عَلَى جِبَلَّتِهِ .

34 - لسان العرب لابن منظور 34/12

وَ فِي الْحَدِيثِ : " إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَّا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ " أَرَادَ : أَنَّهُ عَلَى أَصْلِ وِلَادَةِ أُمَّهُمْ لَمْ يَتَعَلَّمُوا الْكِتَابَةَ وَ الْحِسَابَ ، فَهَمَّ عَلَى جِبَلَتِهِمُ الْأُولَى .

وَقِيلَ لِسَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْأُمِّيُّ ؛ لِأَنَّ أُمَّةَ الْعَرَبِ لَمْ تَكُنْ تَكْتُبُ وَلَا تَقْرَأُ الْمَكْتُوبَ ، وَبَعَثَهُ اللَّهُ رَسُولًا وَهُوَ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ مِنْ كِتَابٍ .

وَ كَانَتْ هَذِهِ الْخَلَّةُ إِحْدَى آيَاتِهِ الْمُعْجَزَةِ ؛ لِأَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَلَا عَلَيْهِمْ كِتَابَ اللَّهِ مَنْظُومًا تَارَةً بَعْدَ أُخْرَى بِالنِّظْمِ الَّذِي أُنزِلَ عَلَيْهِ فَلَمْ يُعَيِّرْهُ وَلَمْ يُبَدِّلِ أَلْفَاظَهُ ، فَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ 35 .

كيفية التمييز بين الأنبياء و غيرهم من الناس

يفتقر الأنبياء - صلوات الله عليهم - عن الناس بفروق كثيرة منها ما ذكره ابن الوزير - رحمه الله - في كتابه الماتع إنبات الحق على الخلق و هي :

الأول : اتَّفَاقُ الْأَنْبِيَاءِ فِي التَّوْحِيدِ وَالِدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّرْغِيبِ فِيمَا لَدَيْهِ وَالتَّرْهيبِ مِنْ عُقُوبَتِهِ فَالْأُولُ مِنْهُمْ يَبْشُرُ بِالثَّانِي وَالْآخِرُ مِنْهُمْ يُؤْمِنُ بِالْأُولِ وَكَيْسَ أَحَدٍ مِنْهُمْ يُخْطِئُ

35 - تاج العروس للزبيدي 237/31

أحداً ولا ينقم عليه ولا ينتقصه بخلاف سائر أرباب الخوارق وسائر العلماء والأولياء فإنه يجري بينهم المعارضة الدالة على ارتفاع العصمة.

الوجه الثاني : صاحب المعجزات يفارق صاحب الحيل والسحر في الزي و الرواء³⁶ والهيبه والكلام والأفعال وفي كافة الأحوال أنوار التقوى تلالاً في وجه صاحب المعجزات وآثار الصلاح تلوح في وجوه أهل الخيرات تعرفهم بسيمائهم كما قال ربهم ومولاهم.

شيمتهم التحلم والاصطبار ودينهم الصبح والعفو والاسئغفار والجود فالسخاء و الإيثار والمصافاة مع المساكين والفقراء والحنو والحدب على الضعفاء والأعراض عن زخارف الدنيا وعن اتباع الشهوات والهوى.

وأما أصحاب السحر والحيل فرذائل التزوير لائحة في وجوههم و مخايل الختل والغدر واضحة في جباههم قصارى همهم استمالة الأغبياء وإيثار مواطن الملوك والأمراء والأغنياء وغاية أمنيتهم نيل الجاه والعز في الدنيا والظفر بما يوافق النفس والهوى .

وإلى هذا الوجه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ (سورة المؤمنون الآية 69) وقوله : ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (سورة يونس من الآية 77) كما تقدم في كلام موسى - عليه السلام - وقوله تعالى : ﴿ أَتَبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ (سورة يس الآية 21) وأمثالها.

³⁶ - الرواء حسن المنظر

الْوَجْهَ الثَّالِثَ : أَنَّهُ يَظْهَرُ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ مَا يَمِيزُهُ مِنَ السَّحَرَةِ وَأَهْلِ الْحَيْلِ مِثَالِ ذَلِكَ إِيمَانُ السَّحَرَةِ بِمُوسَى وَاعْتِرَافِهِمْ أَنَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ لَيْسَ فِي جِنْسِ السَّحَرِ وَإِحْيَاءُ عِيسَى لِلْمَوْتِ وَذَلِكَ إِنْ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ فِي وَقْتِ ظَهْرِ فِيهِ عِلْمُ السَّحَرِ وَعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ فِي زَمَنِ ظَهْرِ فِيهِ عِلْمُ الطَّبِّ فَجَاءَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِمَا يَعْرِفُهُ أَهْلُ عَصْرِهِ وَكَذَلِكَ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ فِي زَمَانِ ظَهَرَتْ فِيهِ الْفَصَاحَةُ فَجَاءَ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِمْ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ³⁷.

و يجب ألا نخلط بين الأمر الخارق للعادة مع دعوى النبوة الذي هو المعجزة و بين الأمر الخارق للعادة مع الاستقامة والصلاح و عدم دعوى النبوة و هي الكرامة فالمعجزة هي الأمر الخارق للعادة، وكذلك الكرامة في عرف أئمة أهل العلم المتقدمين إلا أن المعجزة تقترب بدعوى النبوة و الكرامة لا تقترب بذلك³⁸.

و من يقول لا تثبت الكرامة؛ لأننا لو أثبتنا الكرامات لاشتبه الساحر بالولي و الولي بالنبي؛ لأن كل واحد منهم يأتي بخارق فالجواب لا يمكن الالتباس؛ لأن الكرامة على يد ولي، والولي لا يمكن أن يدعي النبوة، ولو ادعاها لم يكن ولياً أية النبي تكون على يد نبي، والشعوذة و السحر على يد عدو بعيد من ولاية الله، وتكون بفعله باستعانتة بالشياطين فينالها بكسبه بخلاف الكرامة فهي من الله تعالى لا يطلبها الولي بكسبه³⁹.

³⁷ - إيتار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق لابن الوزير ص 69 باختصار

³⁸ - تهذيب شرح الطحاوية للدكتور محمد صلاح الصاوي ص 83

³⁹ - شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين ص 618 - 619

و كل عاقل يميز بين سيرة الساحر و الدجال والكذاب و بين سيرة النبي الصالح، و كل إناء بما فيه ينضح فالنبي لا بد أن يأتي بما أمرت به الأنبياء من التوحيد والعدل والصدق، و يخبر بيوم الجزاء و بما أعد الله تعالى للصالحين و ما توعد به الكافرين و الفاسقين و الساحر لا يأمر بخير و الدجال كذلك مثله لا يحول إلا حول مال أو رياسة أو جاه أو منصب و لا بد أن يثبت كذب المتنبئ الكاذب و صدق النبي الصادق الصالح⁴⁰.

و السحرة - هداهم الله - مشتهرون بالفسق و الفجور و عدم الدعوة لعبادة الله و لا يتحدثون الآخرين و لا يطلبون المواجهة فيما يقومون به؛ لعلمهم أن عملهم نتيجة التعليم و التعلّم و التمرين، و أن هذا الطريق مفتوح أمام جميع الناس الراغبين في سلوك ذلك الطريق، و أمّا ما يقوم به الأنبياء فإنه مقترن بالتحدي و طلب المواجهة و تعجيز الآخرين لإثبات أحقيّتهم فيما يدعون من عبادة الله وحده.

و هناك فرق شاسع بين غاية الأنبياء من أفعالهم الخارقة للعادة و هدف السحرة من أفعالهم الخارقة للعادة، فالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - إنما يقومون بتلك الأفعال الخارقة للعادة من أجل تحقيق غاية نبيلة سامية رفيعة ألا وهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور و من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد أما و أفعال السحرة فغايتها هدف مادي من طلب المال أو المنصب أو كلاهما.

إذن يشترط للمعجزة أن تكون أمر خارق للعادة مع دعوى النبوة و دعوة الناس لعبادة الله و صلاح الداعي إلى عبادة الله تمييزاً لهؤلاء الرسل عن غيرهم ممن تحدث لهم بعد الخوارق لكنهم لا يدعون لعبادة الخالق و لا لدين الخالق، بل سحرة خبيثاء.

⁴⁰ العقائد السلفية لأحمد بن حجر آل بوطامي ص 424

ومن هنا ندرك كذب من يقول المعجزة ليست دليلا على صحة نبوة مدعي النبوة لظهور الخوارق على أيدي بعض الناس غير الأنبياء إذ يستحيل ظهور أمر خارق للعادة مع دعوى النبوة، و يكون مدعيها كاذب فالتأييد بالمعجزة مع دعوى الرسالة إن لم يكن مدعيها نبي فهذا تأييد من الله لمدعيها الكاذب و هذا لا يجوز في حق الله، فتحتم أن يكون ظهور المعجزة مع دعوى الرسالة دليل على صدق النبوة .

و قد اتفقت الكتب والشرائع على أن الله - جل وعلا - لا يؤيد الكذاب عليه، بل لا بُدَّ أن يظهر كذبه، وأن ينتقم منه، و لو أن حاجب الأمير قال للناس: إن الأمير قد أمركم بفعل كذا وكذا. فإن الناس يعلمون أنه لا يتعمد الكذب في مثل هذا وإن لم يكن بحضرتة، فكيف إذا كان بحضرتة، والله لا يغيب عنه شيء.

و قال ابن القيم : « وقد جرت لي مناظرة بمصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم والرياسة، فقلت له في أثناء الكلام : أنتم بتكذيبكم محمدا صلى الله عليه وسلم قد شتمتم الله أعظم شتيمة. فعجب من ذلك، و قال : مثلك يقول هذا الكلام! فقلت له : اسمع الآن تقريره.

إذا قلتم : إن محمدا ملك ظالم قهر الناس بسيفه و ليس برسول من عند الله، و قد أقام ثلاثا وعشرين سنة يدعي أنه رسول الله أرسله إلى الخلق كافة، و يقول : أمرني الله بكذا و نهاني عن كذا و أوحى إلي كذا؛ ولم يكن من ذلك شيء، و يقول : إنه أباح لي سبي ذراري من كذبي وخالفني ونساءهم وغنيمة أموالهم وقتل رجالهم، فلا يخلو إما أن تقولوا أن الله سبحانه كان يطلع على ذلك ويشاهده ويعلمه، أو تقولوا أنه خفى عنه ولم يعلم به.

فإن قلتم لم يعلم به نسبتموه إلى أقبح الجهل وكان من علم ذلك أعلم منه، وإن قلتم بل كان ذلك كله بعلمه ومشاهدته وإطلاعه عليه فلا يخلو إما أن يكون قادراً على تغييره والأخذ على يديه ومنعه من ذلك، أولاً، فإن لم يكن قادراً فقد نسبتموه إلى أقبح العجز المنافي للربوبية، وإن كان قادراً وهو مع ذلك يعزه وينصره ويؤيده ويعيه ويعلى كلمته، ويوجب دعاءه ويمكنه من أعدائه ويظهر على يديه من أنواع المعجزات والكرامات ما يزيد على الألف.

ولا يقصده أحد بسوء إلا أظفره به ولا يدعو بدعوة إلا استجاب لها فهذا من أعظم الظلم والسفه الذي لا يليق نسبته إلى آحاد العقلاء فضلاً عن رب الأرض والسماء؛ فكيف وهو يشهد له بإقراره على دعوته وبتأييده وبكلامه وهذه عندكم شهادة زور وكذب فلما سمع ذلك قال معاذ الله أن يفعل الله هذا بكاذب مفتر بل هو نبي صادق من اتبعه أفلح وسعد

« 41 .

ويشترط للمعجزة عدم قدرة الناس على معارضتها وعجزهم عن مقابلتها والإتيان بما جاء به مدعي النبوة أو إبطال ما جاء به مدعي النبوة.

فرية المعجزة لا تدل على صدق النبوة؛ لأن ما كان خارقاً للعادة في زمان قد يكون اعتيادياً في زمان آخر

41 - هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم ص 87

يردد بعض المغرضين - هداهم الله للحق - فرية يبغي فسادها عن إفسادها و بطلانها عن إبطالها ألا وهي أن المعجزة لا تدل على صدق النبوة بحجة أن ما كان خارقاً للعادة في زمان قد يكون اعتيادياً في زمان آخر كالطيران في السماء من الأمور المستحيلة في الزمان الماضي، ولكنه أصبح الآن من الأمور المتعارفة و الاعتيادية عن طريق اختراع الطائرة، و التحدث عن بعد كان مستحيلاً في الزمان الماضي لكنه أصبح الآن من الأمور المتعارفة و الاعتيادية عن طريق اختراع الهاتف المحمول.

و الجواب أن المعجزة تكون على خلاف القوانين المتعارفة و تحدث دون توفر العلة الاعتيادية سواء في الماضي أو الحاضر كتحول عصا موسى - عليه السلام - إلى حية تسعى كان ولا يزال خارقاً للعادة، أو أن ينبع الماء بين أصابع النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - كان ولا يزال خارقاً للعادة أو يسبح الطعام بين يديه كان ولا يزال خارقاً للعادة، و الطيران في الهواء له سبب اعتيادي في الزمن الحاضر ألا و هو الطائرة، و الكلام عن بعد له سبب اعتيادي في الزمن الحاضر ألا وهو التليفون المحمول فلا يكون خارقاً للعادة.

فرية أن دلائل النبوة غير القرآن لا يصح التمسك بها في إثبات نبوته - صلى الله عليه

وسلم -

يقول بعض المغرضين ما ذكره المسلمون من تَسْبِيحِ الْحَصَى وانشقاق الْقَمَرِ وتكليم الغزالة وحنين الجذع وَنَحْوِ ذَلِكَ مما يعتقدونه أنه يدل على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - هو من قبيل الآحاد فآحاد هَذِهِ الْأُمُورِ غَيْرِ مَعْلُومَةٍ وَلَا مَنْقُولَةٍ بِطَرِيقِ التَّوَاتُرِ وَإِنَّمَا هِيَ مُسْتَنَدَةٌ إِلَى الْآحَادِ وَهِيَ مِمَّا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ التَّمَسُّكُ بِهَا فِي الْقَطْعِيَّاتِ وَإِثْبَاتِ النُّبُوتِ.

و قد أجاب الآمدي عن هذه الشبهة بقوله : « و مَا قِيلَ مِنْ آحَادِ الْمَعْجَزَاتِ الَّتِي أَشْرَفْنَا إِلَيْهَا مِنْ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ وَ تَسْبِيحِ الْحَصَى وَ نَحْوِهِ لَمْ يَثْبِتْ بِطَرِيقِ مُتَوَاتِرٍ فَبَعِيدٍ فَإِنَّا نَعْلَمُ ضَرُورَةَ أَنْ مَا مِنْ عَصْرِ مِنَ الْأَعْصَارِ إِلَّا وَ أَصْحَابِ الْأَخْبَارِ وَأَرْبَابِ الْأَثَارِ وَأَهْلِ السَّيْرِ وَالتَّوَارِيخِ قَوْمٌ لَا يَتَصَوَّرُونَ مِنْهُمْ التَّوَاطُؤَ عَلَى الْكُذْبِ عَادَةً وَ هُمْ بِأَسْرِهِمْ مُتَفَقِّهُونَ عَلَى نَقْلِ آحَادِ هَذِهِ الْأَعْلَامِ وَكَذَا فِي كُلِّ عَصْرِ إِلَى الصَّدْرِ الْأَوَّلِ .

ثُمَّ وَكَوْ سَلِمَ ذَلِكَ فِي الْآحَادِ فَلَا مَحَالَةَ أَنْ عُمُومُ وَرُودِهَا يُوجِبُ الْعِلْمَ بِصُدُورِ الْمَعْجَزَاتِ عَنْهُ وَظُهُورِ الْخَوَارِقِ عَنْهُ جَمَلَةً كَمَا نَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ شَجَاعَةَ عَنَتِ وَكْرَمَ حَاتِمٍ لِكَثْرَةِ مَا رَوَاهُ النُّقْلَةَ عَنْهُمَا مِنْ أَحْوَالٍ مُخْتَلَفَةٍ تَدُلُّ عَلَى كَرَمِ هَذَا وَشَجَاعَةِ هَذَا وَإِنْ كَانَ نَقْلُ كُلِّ حَالَةٍ مِنْهُمَا نَقْلَ آحَادٍ لَا نَقْلَ تَوَاتُرٍ⁴² .

و قال القسطلاني - رحمه الله - : « و أما ما عدا القرآن من معجزاته - صلى الله عليه وسلم - ، كنبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الطعام ببركته، وانشقاق القمر، و نطق الجماد، فمنه ما وقع التحدي به، و منه ما وقع دالا على صدقه من غير سبق تحد.

و مجموع ذلك يفيد القطع بأنه ظهر على يده - صلى الله عليه وسلم - من خوارق العادات شيء كثير - كما يقطع بجود حاتم، و شجاعة علي- و إن كانت أفراد ذلك ظنية و ردت موارد الآحاد مع أن كثيرا من المعجزات النبوية قد اشتهر و رواه العدد الكثير، و الجرم الغفير، و أفاد الكثير منه القطع عند أهل العلم بالآثار و العناية بالسير و الأخبار، و إن لم يصل عند غيرهم إلى هذه المرتبة لعدم عنايتهم بذلك.

⁴² - غاية المرام في علم الكلام للآمدي ص 357

فلو ادعى مدع أن غالب هذه الوقائع مفيد للقطع النظري لما كان مستبعدا، و ذلك أنه لا مرية أن رواة الأخبار في كل طبقة قد حدثوا بهذه الأخبار في الجملة، ولا يحفظ عن أحد من الصحابة مخالفة الراوي فيما حكاه من ذلك و لا الإنكار عليه فيما هنالك، فيكون الساكت منهم كالناطق، لأن مجموعهم محفوظ عن الإغضاء على الباطل،

وعلى تقدير أن يوجد من بعضهم إنكار أو طعن على بعض من روى شيئا من ذلك فإنما هو من جهة توقف في صدق الراوي أو قهمنه بكذب، أو توقف في ضبطه أو نسبته إلى سوء الحفظ، أو جواز الغلط، ولا يوجد أحد منهم طعن في المروى، كما وجد منهم في غير هذا الفن من الأحكام وحروف القرآن ونحو ذلك والله أعلم»⁴³.

لماذا كان القرآن معجزة لنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم -؟

قال الله - سبحانه و تعالى - : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ و المراد من مثل القرآن : ما يشابهه في حسن النظم، وبراعة الأسلوب و جمال العبارة و عذوبة الكلمات والقصد في اللفظ مع وفائه بالمعنى و الجمال الصوتي للكلام وهذا الوجه من الإعجاز يتحقق في كل سورة من سور القرآن.

⁴³ - المواهب اللدنية للقسطاني 249/2 - 250

و كان القرآن الكريم معجزة عظيمة لبينا محمد - صلى الله عليه وسلم -؛ لآئته قد تحدى به كافة الفصحاء البلغاء ومُدَّة مقامه بينهم فلم يقدرُوا على مُعارضة شيء منه فإذن هو معجزة بَيان ذلك أنه - صلى الله عليه وسلم - بعثه الله إلى قوم كان مُعظم علمهم الكَلَام الفصيح البليغ المليح.

فَلَقَدْ خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم و أوتوا من دراية اللسان ما لم يؤته إنسان ومن فصل الخطاب ما يتعجب منه أولوا الألباب جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقهم فيهم غريزة و وضعاً فيأتون منه على البديهة بالعجب و يدلون به إلى كل سبب.

فيخطبون بدوها في المقامات وشديد الخطب ويرتجزون به بين الطعن والضرب فرُبما مدحوا شيئاً وضيعاً فرُفع ورُبما ذموا شريفاً فوضع فيصرون بمدحهم النَّاقص كاملاً و النبيه خاملاً و ذلك لفصاحتهم الرائقة وبلاغتهم الفائقة فكأنوا يأتون من ذلك بالسحر الحلال ويوردونه أعذب من الماء الزلال فيخدعون بذلك الألباب و يذللون الصعاب و يذهبون الإحن و يهيجون الفتن و يجردون الجبان و يبسطون يد الجعد البنان.

فهم يعرفون أصناف الكَلَام ما كان منه نثراً وما كان ذا نظام قد عمروا بذلك أزمانهم وجعلوا ذلك مهمتهم وشأنهم حتى بلغوا منه أعلى الرتب وأطلوا منه على كل غابة و سب لا ينازعهم في ذلك مُنازع و لا يدافعهم عن ذلك مدافع فبيئناهم كذلك إذ جاءهم رسول كريم بقرآن حكيم فعرضه عليهم وأسمعهم إياه و استدلل على صدقه بذلك.

وَقَالَ لَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ صَدَقِي فَاتُّوا بِقُرْآنٍ مِثْلِهِ وَعِنْدَ سَمَاعِهِمْ لَهُ رَاعِيَهُمْ مَا سَمِعُوا وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ دُونَ مَعَارِضَتِهِ قَدْ انْقَطَعُوا فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ إِنَّهُ طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِعِشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ فَعَجَزُوا وَلَمْ يَقْدِرُوا ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا .

وَعِنْدَ ذَلِكَ أَخْبَرَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ : ﴿ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ ﴿ يَعْنِي عَوْنَا فَعِنْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ عَجْزُهُمْ وَتَبَلَّدَهُمْ وَإِنْ كَانُوا هُمُ اللَّسَنُ الْفَصِيحُ اللَّدُّ الْبَلِغُ .

وَعِنْدَ ظُهُورِ عَجْزِهِمْ تَبَيَّنَتْ حُجَّتُهُ وَوَضَحَتْ مُحِجَّتُهُ وَهَكَذَا حَالٌ غَيْرٌ وَاحِدٌ مِنَ الرُّسُلِ أَلَّا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ إِلَى قَوْمٍ كَانُوا مُعْظَمَ عِلْمِهِمْ وَعَمَلِهِمُ السِّحْرَ فَأَيَّدَهُ بِقَلْبِ الْعَصَى حَيَّةٍ تَسْعَى فَرَامِ السَّحَرَةِ مَعَارِضَتَهُ وَمَقَاوِمَتَهُ فَلَمْ يَقْدِرُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَى شَيْءٍ وَعِنْدَ عَجْزِهِمْ تَبَيَّنَ صَدَقُهُ وَأَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ .

وَكَذَلِكَ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَعَثَهُ اللَّهُ فِي زَمَانٍ كَانُوا مُعْظَمَ عِلْمِ أَهْلِ الطَّبِّ أَيَّدَهُ بِأَحْيَاءِ الْمَوْتَى وَإِبْرَاءِ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ وَعِنْدَ عَجْزِهِمْ عَنِ الْإِثْيَانِ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ تَبَيَّنَ صَدَقُهُ وَأَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ فَعَلِمَ بِهَذَا الْبُرْهَانِ الَّذِي لَمْ يَتَطَّرَقْ إِلَيْهِ خَلَلَ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ⁴⁴ .

وَقَالَ تَقِي الدِّينِ الْمُقْرِيزِي : « فَإِنَّ اللَّهَ - جَلَّ جَلَالُهُ - أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، عَلَى وَصْفٍ مُبَايِنٍ لِأَوْصَافِ كَلَامِ الْبَشَرِ؛ لِأَنَّهُ مَنْظُومٌ وَ لَيْسَ مَنْثُورٌ وَنَظْمُهُ لَيْسَ كَنْظَمِ الرِّسَالِ، وَ لَا نَظْمِ الْخُطْبِ، وَ لَا نَظْمِ الْأَشْعَارِ، وَ لَا هُوَ كَسَجْعِ الْكُهَّانِ، وَ أَعْلَمُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ

⁴⁴ - الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص 323-325

أحدا لا يستطيع أن يأتي بمثله، ثم أمره - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن يتحداهم على الإتيان به إن ادعوا أنهم قادرون عليه»⁴⁵.

و قال ابن كثير - رحمه الله - : « فَلَفْظُهُ مُعْجَزٌ تَحَدَّى بِهِ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ أَوْ بَعْشَرَ سُورٍ مِنْ مِثْلِهِ أَوْ بِسُورَةٍ، وَقَطَعَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ لَا فِي الْحَالِ وَلَا فِي الْإِسْتِقْبَالِ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا وَلَنْ يَفْعَلُوا وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُ كَلَامُ الْخَالِقِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُشْبَهُهُ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ »⁴⁶.

و قال ابن تيمية - رحمه الله - : « قَدْ يَكُونُ فِي تَتَابُعِ الْآيَاتِ حِكْمَةٌ، فَيَتَابِعُ تَعَالَى بَيْنَ الْآيَاتِ، كَمَا أُرْسِلَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِآيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ لِعُمُومِ دَعْوَتِهِ وَشُمُولِهَا، فَإِنَّ الْأَدْلَةَ كُلَّمَا كَثُرَتْ، وَتَوَارَدَتْ عَلَى مَدْلُولٍ وَاحِدٍ كَانَ أَوْكَدَ وَأَظْهَرَ وَأَيْسَرَ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ فَقَدْ يَعْرِفُ دَلَالَةَ أَحَدِ الْأَدْلَةِ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْآخَرَ، وَقَدْ يُبْلَغُ هَذَا مَا لَمْ يُبْلَغُ هَذَا، وَقَدْ يُرْسَلُ الْأَنْبِيَاءُ بِآيَاتٍ مُتَتَابِعَةٍ، وَتُقَسَى قُلُوبُ الْكُفَّارِ عَنِ الْإِيمَانِ لِتَتَابُعِ الْآيَاتِ آيَةً بَعْدَ آيَةٍ لِيَنْتَشِرَ ذَلِكَ، وَيُظْهَرَ، وَيُبْلَغَ ذَلِكَ قَوْمًا آخَرِينَ فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِإِيمَانِهِمْ، كَمَا فَعَلَ بِآيَاتِ مُوسَى، وَآيَاتِ مُحَمَّدٍ، كَمَا ذَكَرَ فِي التَّوْرَةِ أَنَّهُ يُقَسَى قَلْبَ فِرْعَوْنَ لِتَظْهَرِ عَجَائِبُهُ وَآيَاتُهُ، وَكَمَا صَدَّ الْمُكذِّبِينَ عَنِ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ حَتَّى يُمَانِعُوهُ، وَيَسْعَوْا فِي مُعَارَضَتِهِ، وَالْقَدْحِ فِي آيَاتِهِ فَيُظْهَرُ بِذَلِكَ عَجْزُهُمْ عَنِ مُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ، وَغَيْرِهِ مِنْ آيَاتِهِ فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ تَمَامِ ظُهُورِ آيَاتِهِ، وَبِرَاهِينِهِ، بِخِلَافِ مَا لَوْ أَتَّبِعَ ابْتِدَاءً بَدُونَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى مُعَارَضَتِهِ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَى يَقِينِهِ، وَصَبْرِهِ، وَجِهَادِهِ، وَيَقِينِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَصَبْرِهِمْ، وَجِهَادِهِمْ مَا يَنَالُونَ بِهِ عَظِيمَ الدَّرَجَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ »⁴⁷.

45 - إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع 39/9

46 - قصص الأنبياء لابن كثير 430/2

47 - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح 430/6

و قال القسطلاني - رحمه الله - : « إعجازه هو الوصف الذي صار به خارجا عن جنس كلام العرب من النظم و النثر و الخطب والشعر والرجز والسجع، فلا يدخل في شيء منها ولا يختلط بها مع كون ألفاظه وحروفه من جنس كلامهم، ومستعملة في نظمهم ونثرهم، ولذلك تحيرت عقولهم، وتدهت أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في حسن كلامهم، فلا ريب أنه في فصاحته قد قرع القلوب ببديع نظمه، وفي بلاغته قد أصاب المعاني بصائب سهمه، فإنه حجة الله الواضحة، ومحجته اللاتحة، ودليله القاهر، وبرهانه الباهر، ما رام معارضته شقي إلا تهاقت تهاقتُ الفراش في الشهاب، وذل ذل النقد حول الليوث الغضاب.

وقد حكى عن غير واحد ممن عارضه أنه اعترته روعة وهيبة كفته عن ذلك، كما حكى عن يحيى بن حكيم الغزال - بتخفيف الزاي وقد تشدد- وكان بليغ الأندلس في زمانه أنه قد رام شيئا من هذا، فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها، وينسج بزعمه على منوالها، فاعترته خشية ورقة، حملته على التوبة والإنابة.

وحكى أيضا أن ابن المقفع - و كان أفصح أهل وقته - طلب ذلك ورامه، و نظم كلاما وجعله مفصلا، و سماه سورا فاجتاز يوما بصبي يقرأ في مكتب قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ... ﴾ الآية، فرجع و محى ما عمل وقال : أشهد أن هذا لا يعارض أبدا، وما هو من كلام البشر»⁴⁸.

و قال الزرقاني - رحمه الله - : « أبرع الشعراء لم يكتب له التبريز والإجادة والجمع بين المعنى الناصع واللفظ الجامع إلا في أبيات معدودة من قصائد محدودة أما سائر شعرهم بعد فبين متوسط ورديء وها هم أولاء يعلنون حكمهم هذا نفسه أو أقل منه على الناثرين من الخطباء والكتاب.

⁴⁸ - المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للقسطلاني 246/2

وإن أردت أن تلمس بيدك هذه الخاصة فافتح المصحف الشريف مرة واعمد إلى جملة من كتاب الله وأحصها عددا ثم خذ بعدد تلك الكلمات من أي كلام آخر وقارن بين الجملتين ووازن بين الكلامين وانظر أيهما أملاً بالمعاني مع القصد في الألفاظ ثم انظر أي كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها بما هو خير منها في ذلك الكلام الإلهي و كم كلمة يجب أن تسقطها أو تبدلها في ذلك الكلام البشري؟

إنك إذا حاولت هذه المحاولة فستنتهي إلى هذه الحقيقة التي أعلنها ابن عطية فيما يحكي السيوطي عنه وهو يتحدث عن القرآن الكريم إذ يقول لو نزعته منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد أ.هـ.

وذلك بخلاف كلام الناس مهما سما وعلا حتى كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي أوتي جوامع الكلم وأشرفت نفسه بنور النبوة والوحي وصيغ على أكمل ما خلق الله فإنه مع تحليقه في سماء البيان وسموه على كلام كل إنسان لا يزال هناك بون بعيد بينه وبين القرآن وسبحان الله و بحمده سبحانه الله العظيم! ⁴⁹.

و يقول الشيخ أبو بكر الجزائري - رحمه الله - : « نزول القرآن الكريم عليه وحيا أو حاه الله تعالى إليه فإنه أكبر معجزة عرفها الوجود البشري إذ العادة قاضية بأن أميا لم يقرأ و لم يكتب و لم يجلس بين يدي أستاذ أو مرب أو معلم قط قاضية باستحالة تكلمه بالعلوم والمعارف و معرفته لها و تفوقه فيها فضلا عن أن يأتي بما لم يأت به غيره من كل معاصريه و ممن يأتي بعدهم إلى انقراض الحياة و نهاية الكون.

⁴⁹ - مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني 325/2

فالقُرآن الكريم و قد حوى أعظم تشريع و اشتمل على قدر من العلوم الإلهية و على أثبت الحقائق العلمية كنظام الزوجية و القوانين الكونية كما تعرض لبدء الخليقة و ذكر من قصص الماضين و أخبار السابقين الشيء العجيب و أخبر بمغيبات عديدة فكانت كما أخبر حرفيا بلا زيادة أو نقصان.

هذا الكتاب يأتي به أمي يتحدى كل الخلق على الإتيان بمثله أو بعشر سور من مثل سوره أو سورة واحدة فتعجز البشرية و معها الجن كلهم و تطأطئ رأسها و تسكت عن المعارضة لأكبر معجزة أوتيتها محمد - صلى الله عليه وسلم - لتدل على صدق نبوته و ثبوت رسالته.

عرف هذا فداه أبي و أمي حين قال : "ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة"⁵⁰.

و هذه صورة التحدي قائمة إلى يوم القيامة تحويها آية واحدة هي قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (سورة البقرة 23- 24)

⁵⁰ - متفق عليه رواه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل حديث رقم 4981، ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، حديث رقم 152.

فقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ تَفَعُّلًا ﴾ أي الإتيان بسورة قرآنية من أمي مثل محمد - صلى الله عليه وسلم - في أميته هذا التحدي، وهو نفي الإتيان بسورة من أمي مثل محمد في أميته مازال قائما «⁵¹.

و قال الشعراوي - رحمه الله - : « والحق سبحانه وتعالى تدرج في التحدي مع الكافرين فطلب منهم أن يأتوا بمثل القرآن، ثم طلب عشر سور من مثله ثم تدرج في التحدي فطلب سورة واحدة. والتزل في التحدي من القرآن كله إلى عشر سور. إلى سورة واحدة دليل ضد من تحداهم فلا يستطيعون أن يأتوا بمثل القرآن فيقول : إذن فأتوا بعشر سور فلا يستطيعون ويصبح موقفهم مدعاة للسخرية.

فيقول : فأتوا بسورة و هذا منتهى الاستهانة بالذين تحداهم الله سبحانه وتعالى و إثباتاً لأهم لا يقدر على شيء «⁵².

و الألفاظ والمعاني والتراكيب النحوية في القرآن تنوعت ودخل فيها كل لغات في العرب، و العربي نفسه كان لا يحيط بلغة العرب جميعاً بألفاظها وتفصيلها، و القرآن فيه كلمات بلغة قريش، وفيه كلمات بلغة هذيل، وفيه كلمات بلغة تميم، وفيه كلمات بلغة هوازن، وفيه كلمات بلغة أهل اليمن، وفيه كلمات بلغة حمير و غير ذلك.

و للقرآن جمالا لغويا يفوق أجمل الأشعار، و جمال القرآن اللغوي يعتبر ظاهرة عجيبة امتاز بها القرآن في رصف حروفه وترتيب كلماته ترتيبا دونه كل ترتيب ونظام تعاطاه الناس في كلامهم.

⁵¹ - عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ص 179 - 180

⁵² - تفسير الشعراوي 197/1

وبيان ذلك أنك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة تشعر بلذة جديدة في رصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض في الكلمات والآيات هذا ينقر وذاك يصفر وهذا يخفى وذاك يظهر وهذا يهمس وذاك يجهر إلى غير ذلك مما هو مقرر في باب مخارج الحروف وصفاتها في علم التجويد.

ومن هنا يتجلى لك جمال لغة القرآن حين خرج إلى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة الجامعة بين اللين والشدة والخشونة والرقّة والجهر والخفية على وجه دقيق محكم وضع كلا من الحروف وصفاتها المتقابلة في موضعه بميزان حتى تألف من المجموع قالب لفظي مدهش.

وقشرة سطحية أخاذا امتزجت فيها جزالة البداوة في غير خشونة برقة الحضارة من غير ميوعة وتلاقت عندها أذواق القبائل العربية على اختلافها بكل يسر وسهولة ولقد وصل هذا الجمال اللغوي إلى قمة الإعجاز بحيث لو داخل في القرآن شيء من كلام الناس لاعتل مذاقه في أفواه قارئيه واختل نظامه في آذان سامعيه.

ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوي وذاك النظام الصوتي أنهما كما كانا دليل إعجاز من ناحية كانا سورا منيعا لحفظ القرآن من ناحية أخرى وذلك أن من شأن الجمال اللغوي والنظام الصوتي أن يسترعي الأسماع ويشير الانتباه ويحرك داعية الإقبال في كل إنسان إلى هذا القرآن الكريم وبذلك يبقى أبد الدهر سائدا على ألسنة الخلق وفي آذانهم ويعرف بذاته ومزاياه بينهم فلا يجروا أحد على تغييره وتبديله⁵³.

⁵³ - مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني 313/2

و على الرغم من أن القرآن الكريم نزل على النبي - صلى الله عليه وسلم - على مدار الثلاث والعشرين سنة، ومع ذلك فأول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل من القرآن من البلاغة على درجة واحدة.

و يقول الشيخ مناع القطان : « والحقيقة أن القرآن معجز بكل ما يتحملة هذا اللفظ من معنى :

فهو مُعْجَز في ألفاظه و أسلوبه ، والحرف الواحد منه في موضعه من الإعجاز الذي لا يعني عنه غيره في تماسك الكلمة، والكلمة في موضعها من الإعجاز في تماسك الجملة، والجملة في موضعها من الإعجاز في تماسك الآية.

وهو مُعْجَز في بيانه ونظمه، يجد فيه القارئ صورة حية للحياة والكون والإنسان.

وهو مُعْجَز في معانيه التي كشفت الستار عن الحقيقة الإنسانية ورسالتها في الوجود.

وهو مُعْجَز بعلومه ومعارفه التي أثبت العلم الحديث كثيراً من حقائقها المغيبة.

وهو مُعْجَز في تشريعه وصيائنه لحقوق الإنسان وتكوين مجتمع مثالي تسعد الدنيا على يديه

« 54 .

⁵⁴ - مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص 254 - 255

و يقول الدكتور محمد بكر إسماعيل : « اصطفى الله من ألفاظ اللغة العربية أفصحها وأيسرها على اللسان، وأسهلها على الأفهام، وأمتعها للآذان، وأقواها تأثيراً على القلوب، وأوفاهها تأدية للمعاني، ثم ركَّبها تركيباً محكم البنيان، لا يدانيه في نسجه كلام البشر من قريب ولا من بعيد، وذلك لما يكمن في ألفاظه من الإيحاءات التي تعبر إلى خلجات النفس، وتقتحِم شغاف القلوب .

وما يكون في تركيبه من ألفة عجيبة، وانسجام وثيق بين هذه الألفاظ، مهما تقاربت مخارج حروفها أو تباعدت.

فقد جاء رصف المباني وفق رصف المعاني، فالتقى البحران على أمر قد قُدِرَ، فاستساغته جميع القبائل على اختلاف لهجاتها قراءة وسماعاً .

واستسلمت لهذا النسق الفريد، والترتيب العجيب أساطين البلاغة في كل زمان ومكان، واستمدت منه النفوس المؤمنة روحها وريحانها، فلم يشبع من دراسته العلماء، ولم يملّ تلاوته أحد من الأتقياء»⁵⁵.

نعود و نكرر أن القرآن معجزة عظيمة لنبينا محمد - صلى الله عليه و سلم - فلا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إذ رغم أن القرآن من جنس ما تكلم به العرب و هم كانوا من أهل البلاغة و الفصاحة و الشعر و النثر إلا أنه لم يستطع أحد منهم أن يأتي بمثله في البيان و

⁵⁵ - دراسات في علوم القرآن لمحمد بكر إسماعيل ص 328

الحلاوة و الحسن و الكمال و العذوبة و أداء المعنى المراد رغم حرص العرب، و غير العرب على معارضته.

فلما عجز العرب عن الإتيان بمثله، و هم كانوا في قمة الفصاحة و البلاغة و كانوا يتربصون بالإسلام الدوائر و كانوا يحاربون الإسلام بشتى الطرق علم أن غيرهم أعجز عن معارضة القرآن و لا يستطيع بشر معارضته فهو ليس من قول البشر بل قول خالق البشر.

قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يقول تعالى ذكره: أم يقول هؤلاء المشركون: افترى محمد هذا القرآن من نفسه فاختلقه وافتعله؟ قل يا محمد لهم: إن كان كما تقولون إني اختلقته وافتريته، فإنكم مثلي من العرب، ولساني مثل لسانكم، وكلامي [مثل كلامكم]، فجيئوا بسورة مثل هذا القرآن⁵⁶.

و قد احتج الله علي مشركي العرب في إثبات نبوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما قطع عذرهم فقال : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا ﴾ أي : في شك من صدق هذا الكتاب الذي أنزلناه على محمد، وقلتم : لا ندري هل هو من عند الله أم لا؟ ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ ﴾ أي : من مثل القرآن، كقوله : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ (سورة الطور من الآية 34)، و قوله : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ (سورة يونس من الآية 38)، و قوله : ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ (سورة الإسراء من الآية 88) كل ذلك يريد به مثل القرآن فالعنى: فأتوا بمثل ما أتى به محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في الإعجاز وحسن النظم والإخبار عما كان وعما يكون دون تعلم الكتاب و دراسة الأخبار⁵⁷.

⁵⁶ - تفسير الطبري 91/15

⁵⁷ - تفسير الواحدي 102/1 بتصرف يسير

و معنى الآية : هُوَ الْاِحْتِجَاجُ عَلَى الْكُفَّارِ بِمَعْجَزَةِ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ : إِنْ مُحَمَّدًا قَدْ افْتَرَاهُ، فَقَالَ لَهُمْ : إِنْ كَانَ افْتَرَاهُ وَ أَتَى بِهِ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ فَأَتُوا أَنْتُمْ بِمِثْلِهِ⁵⁸.

و يقول تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَاثُوا بِحَدِيثِ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ (سورة الطور الآيات 33 – 34) أي : يقول : جلّ ثناؤه : فليأت قائلو ذلك له من المشركين بقرآن مثله، فإنهم من أهل لسان محمد - صلى الله عليه وسلم -، ولن يتعذر عليهم أن يأتوا من ذلك بمثل الذي أتى به محمد - صلى الله عليه وسلم - إن كانوا صادقين في أن محمدا صلى الله عليه وسلم تقوّله وتخلّقه⁵⁹.

و يقول السمرقندي - رحمه الله - : « يعني إن قلتم إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - يقول: من ذات نفسه، فأتوا بمثل هذا القرآن كما جاء به إن كانوا صادقين في قولهم »⁶⁰.

و لنقف يسيرا مع قوله - سبحانه و تعالى - : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَأَرْبَبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (سورة يونس الآية 37- 38) فهذه الكلمات القرآنية تحكي ما يردده المغرضون و ترد عليهم بكلام موجز في غاية الروعة و الفصاحة.

⁵⁸ - تفسير السمعاني 384/2

⁵⁹ - تفسير الطبري 481/22

⁶⁰ - بحر العلوم 354/3

قال ابن كثير - رحمه الله - : « هَذَا بَيَانٌ لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ وَأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الْبَشَرُ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَا بِعَشْرِ سُورٍ وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ لِأَنَّهُ بِفَصَاحَتِهِ وَبِلَاغَتِهِ وَوَجَازَتِهِ وَحِلَاوَتِهِ وَاشْتِمَالِهِ عَلَى الْمَعَانِي الْعَزِيزَةِ النَّافِعَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ فَكَلَامُهُ لَا يُشَبِّهُهُ كَلَامُ الْمَخْلُوقِينَ .

وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أَي مِثْلُ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَلَا يُشَبِّهُهُ هَذَا كَلَامُ الْبَشَرِ ﴿ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أَي مِنَ الْكُتُبِ الْمَتَّقِمَةِ وَمَهِيْمِنَا عَلَيْهِ وَمُبَيِّنَاتِنَا لِمَا وَقَعَ فِيهَا مِنَ التَّخْرِيفِ وَالتَّوْبِيلِ وَالتَّبْدِيلِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَي وَبَيَانَ الْأَحْكَامِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ بَيَانًا شَافِيًا كَافِيًا حَقًّا لَا مَرِيَّةَ فِيهِ مِنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الْحَارِثِ الْأَعْوَرِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فِيهِ خَبْرٌ مَا قَبْلَكُمْ وَبَأُ مَا بَعْدَكُمْ وَقَصْلُ مَا بَيْنَكُمْ أَي خَبْرٌ عَمَّا سَلَفَ وَعَمَّا سَيَأْتِي وَحُكْمٌ فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ بِالشَّرْعِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أَي إِنْ ادَّعَيْتُمْ وَافْتَرَيْتُمْ وَشَكَكْتُمْ فِي أَنَّ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَقُلْتُمْ كَذِبًا وَمَيِّنَا إِنَّ هَذَا مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ فَمُحَمَّدٌ بَشَرٌ مِثْلَكُمْ وَقَدْ جَاءَ فِيمَا زَعَمْتُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَأْتُوا أَنْتُمْ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، أَي مِنْ جِنْسِ هَذَا الْقُرْآنِ وَاسْتَعِينُوا عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ مَنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ إِنْسٍ وَجَانٍ .

وَهَذَا هُوَ الْمَقَامُ الثَّلَاثُ فِي التَّحَدِّيِّ فَإِنَّهُ تَعَالَى تَحَدَّاهُمْ وَدَعَاهُمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي دَعْوَاهُمْ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ فَلِيَعَارِضُوهُ بِنَظِيرِ مَا جَاءَ بِهِ وَحَدَهُ وَليَسْتَعِينُوا بِمَنْ شَاؤُوا وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَيْهِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ

وَالجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ (سورة الإسراء الآية 88)

ثُمَّ تَقَاصَرَ مَعَهُمْ إِلَىٰ عَشْرِ سُورٍ مِنْهُ فَقَالَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ هُودٍ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (سورة هُودِ الآية 13) ثُمَّ تَنَزَّلَ إِلَىٰ سُورَةِ فَقَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

وَكَذَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ تَحَدَّثَاهُمْ بِسُورَةٍ مِنْهُ وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ أَبَدًا فَقَالَ: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ (سورة البقرة من الآية 24) الآية .
هَذَا وَقَدْ كَانَتْ الْفِصَاحَةُ مِنْ سَجَايَاهُمْ، وَأَشْعَارِهِمْ وَمُعَلَّقَاتِهِمْ إِلَيْهَا الْمُنْتَهَى فِي هَذَا الْبَابِ، وَلَكِنْ جَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَا قِبَلَ لِأَحَدٍ بِهِ، وَ لِهَذَا آمَنَ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِمَا عَرَفَ مِنْ بَلَاغَةِ هَذَا الْكَلَامِ وَحَلَاوَتِهِ وَجَزَالَتِهِ وَطَلَاوَتِهِ وَإِفَادَتِهِ وَبَرَاعَتِهِ فَكَانُوا أَعْلَمَ النَّاسِ بِهِ وَأَفْهَمَهُمْ لَهُ وَأَتْبَعَهُمْ لَهُ وَأَشَدَّهُمْ لَهُ انْقِيَادًا كَمَا عَرَفَ السَّحْرَةَ لِعِلْمِهِمْ بِفُنُونِ السَّحْرِ أَنَّ هَذَا الَّذِي فَعَلَهُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ مُؤَيَّدٍ مُسَدَّدٍ مُرْسَلٍ مِنَ اللَّهِ وَأَنَّ هَذَا لَا يُسْتَطَاعُ لِبَشَرٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ .

وَكَذَلِكَ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بُعِثَ فِي زَمَانِ عُلَمَاءِ الطَّبِّ وَمُعَالَجَةِ الْمَرْضَى فَكَانَ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، وَ مِثْلُ هَذَا لَا مَدْخَلَ لِلْعِلَاجِ وَالِدَوَاءِ فِيهِ فَعَرَفَ مَنْ عَرَفَ مِنْهُمْ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ .

وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ " مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا " «⁶¹.

وقال المراغي - رحمه الله - : « وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي لا يصح ولا يعقل أن يفتريه أحد على الله من دونه وينسبه إليه، إذ لا يقدر على ذلك غيره - عز و جل -، فإن ما فيه من علوم عالية، و حكم سامية، وتشريع عادل، وآداب اجتماعية، وأنباء بالغيوب الماضية والمستقبلية ليس في طوق البشر ولا هو داخل تحت قدرته وفي حيز مكانته، ولئن سلم أن بشرا في مكنته ذلك فلن يكون إلا أرقى الحكماء و الأنبياء و الملائكة، ومثل هذا لن يفتري على الله شيئا.

و لقد ثبت أن أشد أعداء النبي - صلى الله عليه وسلم -، و هو أبو جهل قال : إن محمدا لم يكذب على بشر قط، أفيكذب على الله؟.

﴿ وَلَكِنْ تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي ولكن كان تصديق الذي تقدمه من الوحي لرسول الله تعالى بالإجمال كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم بدعوته إلى أصول الدين الحق من الإيمان بالله واليوم الآخر وصالح الأعمال بعد أن نسي بعض هذا بقية أتباعهم وضلوا عن بعض، ولم يكن محمد النبي الأمي يعلم شيئا من ذلك لولا الوحي عن ربه.

﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ ﴾ أي وتفصيل ما كتب وأثبت من الشرائع والأحكام والعبر والمواعظ وشئون الاجتماع.

⁶¹ - تفسير ابن كثير 234/4 - 235

﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي لا ينبغي لعاقل أن يرتاب فيه لوضوح برهانه؛ لأنه الحق والهدى.

﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي من وحيه لا افتراء من عند غيره و لا اختلافا كما قال : ﴿ وَكَلِمَاتٍ لَمْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ ﴾ .

و بعد أن أبان أنه أجل وأعظم من أن يفترى لعجز الخلق عن الإتيان بمثله.

انتقل إلى حكاية زعم هؤلاء الجاهلين والمعاندين الذين قالوا: إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - قد افتراه و فئد مزاعمهم وتعجب من حالهم وشنيع مقالهم وتحداهم أن يأتوا بمثله فقال :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي ما كان ينبغي أن تقولوا إن محمد - صلى الله عليه وسلم - افتراه من عند نفسه واختلقه، إذ لو كان الأمر كما تقولون وأنه اختلقه و افتراه، فأتوا بسورة مثله في نظمه و أسلوبه و علمه مفتراة في موضوعها، لا تلتزمون أن تكون حقا في أخبارها، فإن لسانه لسانكم، وكلامه كلامكم، وأنتم أشد مرانا و تمرسا للنشر والنظم منه، واطلبوا من يعينكم على ذلك من دون الله، ولن تستطيعوا أن تفعلوا شيئا، فإن جميع الخلق عاجزون عن هذا ﴿ قُلْ لَنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَكَلِمَاتٍ لَمْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ ﴾ .

كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي زَعْمِكُمْ أَنَّهُ مَفْتَرَى .

وإذ قد عجزتم عن ذلك مع شدة تمرّسكم ولم يوجد في كلام أولئك الذين نصبت لهم المنابر في سوق عكاظ، و بهم دارت رحى النظم والنثر، وتقصّت أعمارهم في الإنشاء والإنشاد مثله - فهو ليس من كلام البشر، بل هو من كلام خالق القوى والقدر .

و من البين أنه ما كان لعاقل مثله - صلى الله عليه وسلم - أن يتحداهم هذا التحدي لو لم يكن موقنا أن الإنس والجن لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن في جملته ولا بسورة مثله، إذ لو كان هو الذي أنشأه و ألفه لمصلحة الناس برأيه لكان عقله و ذكاؤه يمنعانه من الجزم بعجز عقلاء الخلق من العوالم الظاهرة و الباطنة عن الإتيان بسورة مثل ما أتى هو به.

إذ العاقل الفطن يعلم أن ما يمكنه من الأمر قد يمكن غيره، بل ربما وجد من هو أقدر منه عليه.

و الخلاصة : - إن محمد - صلى الله عليه وسلم - كان على يقين بأنه من عند ربه، وأنه - صلى الله عليه وسلم - كغيره لا يقدر على الإتيان بمثله⁶².

و يقول السعدي - رحمه الله - : « يقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : غير ممكن ولا متصور، أن يفترى هذا القرآن على الله تعالى؛ لأنه الكتاب العظيم الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْبِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت الآية 42) .

⁶² - تفسير المراغي 107/11 - 108

و هو الكتاب الذي لو ﴿ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾، و هو كتاب الله الذي تكلم به ﴿ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾، فكيف يقدر أحد من الخلق، أن يتكلم بمثله، أو بما يقاربه، و الكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه؟!.

فإن كان أحد يماثل الله في عظمته، و أوصاف كماله، أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن ، ولو تزلنا على الفرض والتقدير، فتقوله أحد على رب العالمين، لعاجله بالعقوبة، و بادره بالنكال.

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذَا الْكِتَابَ، رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ، وَحِجَّةً عَلَى الْعِبَادِ أَجْمَعِينَ.

أنزله ﴿ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من كتب الله السماوية، بأن وافقها، وصدقها بما شهدت به، و بشرت بتزوله، فوقع كما أخبرت.

﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ ﴾ للحلال والحرام، والأحكام الدينية والقدرية، و الإخبارات الصادقة

﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي: لا شك ولا مرية فيه بوجه من الوجوه، بل هو الحق اليقين: تنزيل من رب العالمين الذي ربي جميع الخلق بنعمه.

و من أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب الذي فيه مصالحهم الدينية و الدنيوية،
المشتمل على مكارم الأخلاق و محاسن الأعمال.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ أي : المكذبون به عنادا و بغيا : ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ محمد على الله، واختلقه، ﴿ قُلْ ﴾
﴿ لهم - ملزما لهم بشيء - إن قدروا عليه، أمكن ما ادعوه، و إلا كان قولهم باطلا .

﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يعاونكم على
الإتيان بسورة مثله، و هذا محال ، و لو كان ممكنا لادعوا قدرتهم على ذلك، ولأتوا بمثله.

ولكن لما بان عجزهم تبين أن ما قالوه باطلا، لا حظ له من الحججة⁶³.

و يقول سيد قطب - رحمه الله - : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾
فهو بخصائصه، الموضوعية و التعبيرية بهذا الكمال في تناسقه و بهذا الكمال في العقيدة التي
جاء بها، و في النظام الإنساني الذي يتضمن قواعده و بهذا الكمال في تصوير حقيقة
الألوهية، و في تصوير طبيعة البشر، و طبيعة الحياة، و طبيعة الكون لا يمكن أن يكون
مفترى من دون الله، لأن قدرة واحدة هي التي تملك الإتيان به هي قدرة الله.

القدرة التي تحيط بالأوائل والأواخر، وبالظواهر والسرائر، وتضع المنهج المبرأ من القصور
والتقص و من آثار الجهل والعجز ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ما كان
من شأنه أصلاً أن يفترى فليس الافتراء هو المنفي، ولكن جواز وجوده هو المنفي، وهو أبلغ
في المنفي وأبعد.

⁶³ - تفسير السعدي ص 364

﴿ وَلَكِنْ تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب التي سبق بها الرسل تصديقها في أصل العقيدة، و في الدعوة إلى الخير .

﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ ﴾ الواحد الذي جاء به الرسل جميعاً من عند الله، تتفق أصوله وتختلف تفصيلاته.

وهذا القرآن يفصل كتاب الله ويبين وسائل الخير الذي جاء به، ووسائل تحقيقه وصيانتته : فالعقيدة في الله واحدة، و الدعوة إلى الخير واحدة، ولكن صورة هذا الخير فيها تفصيل، والتشريع الذي يحققه فيه تفصيل، يناسب نمو البشرية وقتها، وتطورات البشرية بعدها، بعد أن بلغت سن الرشد فخطبت بالقرآن خطاب الراشدين، ولم تخاطب بالخوارق المادية التي لا سبيل فيها للعقل والتفكير.

﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ تقرير وتوكيد لنفي جواز افتراءه عن طريق إثبات مصدره: ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ بعد هذا النفي والتقرير، فهو إذن من صنع محمد. ومحمد بشر ينطق باللغة التي ينطقون بها، ولا يملك من حروفها إلا ما يملكون. (ألف. لام. ميم). (ألف. لام. را.). (ألف. لام. ميم. صاد)... إلخ فدوهم إذن - ومعهم من يستطيعون جمعهم - فليفتروا، كما افتري (بزعمهم) محمد فليفتروا سورة واحدة لا قرآناً كاملاً: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

وقد ثبت هذا التحدي وثبت العجز عنه، وما يزال ثابتاً ولن يزال، و الذين يدركون بلاغة هذه اللغة، و يتذوقون الجمال الفني و التناسق فيها ، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان، و كذلك الذين يدرسون النظم الاجتماعية، والأصول التشريعية، و يدرسون النظام الذي جاء به هذا القرآن، يدركون أن النظرة فيه إلى تنظيم الجماعة الإنسانية و مقتضيات حياتها من جميع جوانبها، و الفرص المدخرة فيه لمواجهة الأطوار و التقلبات في يسر ومرونة .

كل أولئك أكبر من أن يحيط به عقل بشري واحد، أو مجموعة العقول في جيل واحد أو في جميع الأجيال. ومثلهم الذين يدرسون النفس الإنسانية ووسائل الأصول إلى التأثير فيها وتوجيهها ثم يدرسون وسائل القرآن وأساليبه .

فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده، ولكنه الإعجاز المطلق الذي يلمسه الخبراء في هذا وفي النظم والتشريعات والنفسيات وما إليها..

و الذين زاولوا فن التعبير، و الذين لهم بصر بالأداء الفني، يدركون أكثر من غيرهم مدى ما في الأداء القرآني من إعجاز في هذا الجانب، و الذين زاولوا التفكير الاجتماعي والقانوني والنفسي، و الإنساني بصفة عامة ، يدركون أكثر من غيرهم مدى الإعجاز الموضوعي في هذا الكتاب أيضاً»⁶⁴.

⁶⁴ - في ظلال القرآن 3/1789-1790

و يقول الألوسي - رحمه الله - : « فَإِن ما افترى إنسان يقدر إنسان آخر أن يفترى مثله
65 » .

ولو كان العرب يظنون أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - استعان بغيره في تأليف القرآن الكريم لأمكنهم أيضا من أجل المعارضة والتحدي أن يستعينوا بغيرهم؛ لأنهم مثله في معرفة اللغة وفي المكنة من الاستعانة، فلما لم يفعلوا ذلك وآثروا المقاتلة والمقارعة بالسنان على المعارضة والمقاولة باللسان - ثبت أن بلاغة القرآن الكريم كانت مسلمة عندهم، وأنهم عاجزون عن المعارضة، وغاية الأمر أنهم صاروا مفترقين بين مصدق بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وبالقرآن المتزل عليه من ربه، وبين معاند متحير في بديع بلاغة القرآن، والأخبار المنقولة في ذلك عن الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وغيرهما تؤيد ذلك⁶⁶.

من معجزات النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - غير القرآن و الرد على من ينكرها
بدعوى أنها من نقل المسلمين

و من معجزات النبي - صلى الله عليه وسلم - غير القرآن الإخبار ببعض الغيبات و تحققها فقد أذن الله لهذه الأخبار أن تقع، تصديقا وتأييدا لنبوة رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم -، و لا سبيل إلى معرفة هذه الغيوب إلا من هي في يده، وهو الله - جل وعلا - عالم الغيب والشهادة، مثل الإخبار عن أويس بن عامر فقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « إن خير التابعين رجل يقال له أويس. وله والدة. وكان به بياض. فمروه فليستغفر لكم »⁶⁷.

⁶⁵ - روح البيان للألوسي 106/4

⁶⁶ - مختصر إظهار الحق ص 155

⁶⁷ - رواه مسلم في صحيحه رقم 2542

و كان عمر بن الخطاب، إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن، سألهم : أفياكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس. فقال : أنت أويس بن عامر؟ قال : نعم. قال : من مراد ثم من قرن؟ قال : نعم. قال : فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال : نعم. قال : لك والدة؟ قال : نعم. قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد، ثم من قرن. كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم. له والدة هو بها بر. لو أقسم على الله لأبره. فإن استطعت أن تستغفر لك فافعل ". فاستغفر لي. فاستغفر له. فقال له عمر : أين تريد؟ قال : الكوفة. قال : ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال : أكون في غرباء الناس أحب إلي.

قال : فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشرفهم. فوافق عمر. فسأله عن أويس. قال : تركته رث البيت قليل المتاع. قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول " يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن. كان به برص فبرأ منه. إلا موضع درهم. له والدة هو بها بر. لو أقسم على الله لأبره. فإن استطعت أن تستغفر لك فافعل " فأتى أويسا فقال : استغفر لي. قال : أنت أحدث عهدا بسفر صالح. فاستغفر لي. قال : استغفر لي. قال : أنت أحدث عهدا بسفر صالح. فاستغفر لي. قال : لقيت عمر؟ قال : نعم. فاستغفر له. ففطن له الناس. فانطلق على وجهه. قال أسير : وكسوته بردة. فكان كلما رآه إنسان قال : من أين لأويس هذه البردة؟⁶⁸

و من الإخبار بالغيب الإخبار عن قتال التتار فقد قال - صلى الله عليه وسلم - : « بين يدي الساعة تقاتلون قوماً ينتعلون الشعر وتقاتلون قوما كأن وجوههم الجمان المطرقة »⁶⁹

⁶⁸ - رواه مسلم في صحيحه رقم 2542

⁶⁹ - رواه البخاري في صحيحه

ووجوه التتار كالجنان المطرقة أي وُجُوهُهُمْ كالثُّرُسِ لِيَسْطِهَا وَتَدْوِيرَهَا وَكَالْمِطْرَقَةِ لِغَلْظِهَا وَكَثْرَةَ لَحْمِهَا.

و من الإخبار بالغيب الإخبار عن شهادة عمر وعثمان - رضي الله عنهما - فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد أحداً، ومعه أبو بكر، وعمر، وعثمان، فرجف بهم، فضربه برجله، وقال: « أثبت أحد، فإنما عليك نبي، وصديق، وشهيدان »⁷⁰، وقد قتل عمر و عثمان.

و من الإخبار بالغيب الإخبار بمقتل علي رضي الله عنه فعن أبي سنان الدؤلي - رحمه الله تعالى -، أنه عاد علياً - رضي الله عنه - في شكوى له شكاهها، قال: فقلت له: لقد تخوفنا عليك يا أمير المؤمنين في شكواك هذه، فقال: لكني - والله - ما تخوفت على نفسي منه، لأني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصادق المصدوق يقول: « إنك ستضرب ضربةً ههنا، ويكون صاحبها أشقاها، كما كان عاقراً الناقة أشقى ثمود »⁷¹.

ومن الإخبار بالغيب إخباره عن مشاركة أم حرام في أول غزو للبحر و وفاتها قبل غزو مدينة قيصر ففي خبر أم حرام بنت ملحان، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: « أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا ». قالت أم حرام: قلت: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: « أنت فيهم ». ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: « أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم ». فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: « لا »⁷².

⁷⁰ - رواه البخاري في صحيحه

⁷¹ - رواه أبو يعلى في مسنده و الطبراني في التاريخ الكبير و حسنه الميثمي

⁷² - رواه البخاري في صحيحه

و إن قيل الإخبار بالغيب ليس دليل على النبوة لاحتمال الكهانة فالجواب الإخبار بالغيب إذا اقترن بدعوى النبوة فهو دليل على النبوة لا الكهانة إذ الكهانة ليس فيها دعوى النبوة و شخصية النبي الصادق تختلف عن شخصية الكاهن الكذاب، والنبي الصادق خبره يطابق ما سيحدث أما الكاهن فخبره قد يوافق بعض الذي سيحدث أو لا يوافق الذي سيحدث، و ما هدف النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - من إدعاء النبوة؟ فمن يقرأ سيرته يجده لا يرغب في سلطة ولا مال ولا جاه، و لما يجازف النبي صلى الله عليه وسلم و يقول سيحدث كذا .

و من معجزات النبي - صلى الله عليه وسلم - أيضا سماع تسييح الطعام بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -، قال: كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفاً، كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في سفرٍ، فقل الماء، فقال: اطلبوا فضلة من ماء، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء، ثم قال: حي على الطهور المبارك، والبركة من الله، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد كنا نسمع تسييح الطعام وهو يؤكل⁷³.

و من معجزات النبي - صلى الله عليه وسلم - أيضا سماع الصحابة بكاء جذع النخلة و صراخها لما فارقها رسول الله إلى المنبر فعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار - أو رجل - يا رسول الله، ألا نجعل لك منبراً؟ قال: إن شئتم. فجعلوا له منبراً فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي - صلى الله عليه وسلم - فضمه إليه، يئن أنين الصبي الذي يسكن قال: " كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها " ⁷⁴ .

⁷³ - رواه مسلم في صحيحه

⁷⁴ - رواه البخاري في صحيحه

و من معجزات النبي - صلى الله عليه وسلم - أيضا انقياد الشجرة لأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - فعن جابر ابن عبد الله قال : سرنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى نزلنا واديا أفيح فذهب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقضي حاجته فاتبعته يداوة من ماء فنظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم ير شيئا يستتر به فإذا شجرتان بشاطئ الوادي فانطلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال انقادي علي ياذن الله فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال انقادي علي ياذن الله فانقادت معه كذلك حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما لأم بينهما يعني جمعهما فقال التثما علي ياذن الله فالتأمتا.

قال جابر فخرجت أحضر مخافة أن يحس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقربي فيبتعد وقال محمد بن عباد فيتبعد فجلست أحدث نفسي فحانت مني لفظة فإذا أنا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - مقبلا و إذا الشجرتان قد افترقنا فقامت كل واحدة منهما على ساق فرأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقف وقفة فقال برأسه هكذا وأشار أبو إسماعيل برأسه يمينا وشمالا⁷⁵.

و كل هذه المعجزات لدليل ساطع على صدق النبوة فكيف إذا اجتمعت مع حسن سيرته و اتصافه بالصدق والأمانة و دعواه النبوة في وقت البشرية بحاجة لنبي و تأييد الله له ونصره على أعدائه و إخباره بالغيب.

⁷⁵ - رواه مسلم في صحيحه

و إن قيل هذه المعجزات ليست دليلاً على صدق النبوة إذ هي من نقل المسلمين لا غيرهم فالجواب أن هذا القول غير صحيح فلكل قوم عرباً وعجماء أخبار يتناقلونها عبر الأزمنة و أحداث تنتقل من جيل إلى جيل، فهل يصح أن يقول أحد ما الدليل على صحة هذه الأخبار دون أن يدرسها و يناقشها بعد أن يلم بها إماماً واسعاً، فإذا كان كذلك مع أخبار الأمم والأقوام و التي لا يهتم عامة الناس بضبط أحداثها ودقة تفاصيلها.

فما الشأن بالنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي أرسله الله إلى قوم عرفوا بقوة الحافظة وسعة الذاكرة ودقة الملاحظة، فإن هذه الأخبار والوقائع التي ذكرناها منها ما هو في القرآن ومنها ما هو متواتر يعلمه العامة والخاصة؛ والمتواتر هو ما نقله العدد الكثير من الناس الذين يستحيل تواطؤهم على الكذب، وهو ما تناقلته الأمة المسلمة جيلاً بعد جيل وخلقاً عن سلف من أخبار معجزات النبي الأكرم - صلى الله عليه وسلم -.

وليس لأحد أن يشكك في شهادة هؤلاء الأخبار الأفاضل، أو يزعم أن هؤلاء الأفاضل إنما شهدوا لنبيهم فشهادتهم غير مقبولة، فإن هذا الزعم من شأنه أن يلغى جميع معجزات الأنبياء و جميع ما ورد عن أخبار السابقين لأنه يمكننا أن نقول أن ما ورد عن عيسى - عليه السلام - أو ورد عن موسى - عليه السلام - إنما ذكره أصحابهما والمقربون منهما، وكذلك الشأن مع بقية أخبار الأمم السابقة و المعاصرة.

و من البديهيات أن المروي بالتواتر لا يستطيع أحد إنكاره، و من المحال لدى أي عقل اتفاق رواة التواتر على كذب، ومن ينكر وجود شخصية من الشخصيات كملك أو وزير كان موجوداً يكذبه المؤرخون و يأتون له بكل سهولة بأكثر من نقل ورواية بأن هذه الشخصية كانت موجودة بالفعل، وأن الأحداث التي حصلت لها مروية بأكثر من رواية

وكذلك نبوة النبي - صلى الله عليه وسلم و معجزاته ثابتة و مروية بالتواتر من آلاف الصحابة و التابعين و حتى عصرنا هذا .

الفرق بين القرآن وغيره من المعجزات

قال نجم الدين الطوفي : « يظهر الفرق بين القرآن وغيره من المعجزات من حيث أنه مسموع وهي مبصرة على حسب التفاوت بين المسموعات والمبصرات، وذلك لا تأثير له في حقيقة الإعجاز .

و السبب الموجب لهذا التفاوت :

هو أن الله - سبحانه - أرسل كلا من رسله، بما كان غالبا على قومه تحقيقا لإعجازهم، فبعث موسى إلى قوم مهروا في السحر، فأعجزهم بالعصا ونحوها، والمسيح إلى قوم أهل كهانة وطب وحكمة فأعجزهم بما أيده به، وصالحا إلى قوم أهل إبل فأعجزهم بناقة خرجت من جبل فكذلك لما أرسل محمدا إلى قوم أهل فصاحة يعدون الفصاحة والخطابة من أكبر مآثرهم، ويتنافسون فيها، وكانت الفصاحة بعيدة عن نسبة السحر، بعثه بالقرآن الفصيح»⁷⁶.

فرية أن ما أتى به النبي - صلى الله عليه وسلم - من جنس كلام العرب إلا أنه أفصح منهم لتقدم النبي - صلى الله عليه وسلم - في البلاغة عليهم و ليس؛ لأنه من عند الله، و هذا لا دليل فيه على الإعجاز

⁷⁶ - الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية 601/2

يردد بعض المغرضين أن مَا أَتَى بِهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من جنس كَلَامِ الْعَرَبِ غير أنه كَانَ أَفْصَحَ وَأَوْجَزَ وَأَحْسَنَ نِظْمًا وَأَن يَكُونَ ذَلِكَ إِنَّمَا تَأْتِي لَهُ بِتَقْدِمِهِ فِي الْبَلَاغَةِ عَلَيْهِمْ وَحَسَنَ فَصَاحَتِهِ وَ لَيْسَ لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ هَذَا لَا دَلِيلَ فِيهِ عَلَى الْإِعْجَازِ فَلَا يُوْجَدُ مِنْهُ هُوَ أَبْلَغُ مِنَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَيَكُونُ عَدَمُ وَجُودِ مَنْ يَرُدُّ الْقُرْآنَ بِبَلَاغِيًّا رَاجِعًا لِكُونَ الْقَائِلِ وَ هُوَ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَبْلَغُ الْعَرَبِ.

و الْجَوَابُ إِن قَدْرَ مَا يَفْتَضِيهِ التَّقَدُّمُ وَالْحَذَقُ فِي الصَّنَاعَةِ قَدْرَ مَعْرُوفٍ لَا يَخْرُقُ الْعَادَةَ مِثْلَهُ وَلَا يَعْجِزُ أَهْلَ الصَّنَاعَةِ وَالْمُتَقَدِّمُونَ فِيهَا عَنْهُ مَعَ التَّحْدِي وَالْتَفْرِيعِ بِالْعَجْزِ وَالْقُصُورِ ؛ لِأَنَّ الْعَادَةَ جَارِيَةٌ بِجَمْعِ الدَّوَاعِي وَالْمَهْمِ عَلَى بُلُوغِ مِثْلَةِ الْحَاقِقِ الْمُتَقَدِّمِ فِي الصَّنَاعَةِ.

وَمَا أَتَى بِهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْقُرْآنِ قَدْ خَرَجَ عَنْ حَدِّ مَا يَكْتَسِبُ بِالْحَذَقِ وَعَجَزَ الْقَوْمُ عَنْ مَعَارَضَتِهِ وَمُقَابَلَتِهِ مَعَ إِيْثَارِهِمْ لِذَلِكَ وَاجْتِمَاعِ هَمَمِهِمْ لَهُ وَتَوَفُّرِ دَوَاعِيهِمْ عَلَيْهِ وَعِلْمِهِمْ بِجَعْلِهِ حِجَّةً لَهُ وَدَلَالَةً عَلَى صِدْقِهِ فَخَرَجَ بِذَلِكَ عَنْ نِطْ مَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ.

وَعَلَى أَنَّ الْآيَةَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ مِثْلُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ وَمَنْظُومٍ عَلَى وَزْنِ يُفَارِقُ سَائِرَ أَوْزَانِ كَلَامِهِمْ وَكَوْ كَانَ مِنْ بَعْضِ النِّظْمِ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا لَعَلَّمُوا أَنَّهُ شِعْرٌ أَوْ خُطَابَةٌ أَوْ رَجَزٌ أَوْ طَوِيلٌ أَوْ مَزْدُوجٌ غَيْرُ أَنَّ نَظْمَهُ قَدْ بَرَعَ وَتَقَدَّمَ فِيهِ وَكَيْسَ يَخْرُجُ الْحَذَقُ فِي الصَّنَاعَةِ إِلَى أَنَّ يُؤْتِي بغيرِ جِنْسِهَا وَمَا لَيْسَ مِنْهَا فِي شَيْءٍ وَمَا لَا يَعْرِفُهُ أَهْلِهَا.

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَكُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ قُرَيْشًا أَفْصَحَ الْعَرَبِ وَأَعْرَفَهَا بِاللِّسَانِ وَأَقْدَرَهَا عَلَى سَائِرِ أَوْزَانِ الْكَلَامِ وَأَنَّهَا قَدْ دَهَشَتْ وَطَاشَتْ عَقُولَهَا فِيمَا أَتَى بِهِ فَقَالَتْ مَرَّةً إِنَّهُ سِحْرٌ وَقَالَتْ تَارَةً إِنَّهُ ﴿مَعْلَمٌ مَجْتُونٌ﴾، قَالَتْ أُخْرَى: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ وَقَالَتْ تَارَةً أُخْرَى: ﴿شِعْرٌ﴾ وَقَالَتْ تَارَةً سَلْمَانَ يَلْقَنَهُ وَيَلْقِي إِلَيْهِ حَتَّى قَالَ تَعَالَى: ﴿لِسَانَ الَّذِي يَلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانَ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ عِلْمٌ بِذَلِكَ أَنَّ مَا أَتَى بِهِ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ الْحَذَقِ وَالتَّقَدُّمِ فِي الصَّنَاعَةِ فِي شَيْءٍ⁷⁷.

و القرآن الكريم لو كان من كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - لما وجدت آيات كثيرة تنص على أنه رسول و لما وجدت آيات كثيرة تتصدر بفعل الأمر قل و لما نزلت آيات كثيرة بعد طول انتظار و لما وجدت آيات كثيرة تعاتبه و عند مقارنة كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - بالقرآن نجد اختلافا كبيرا و كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - استطاع بعض الناس معارضة بعضه أما القرآن فلم يستطع أحد معارضته.

العرب على اختلاف مراتبهم في البيان لم يرتفعوا إلى طبقة البلاغة الحمديّة، وأزعم أن هذا القصور الذاتي الذي قعد بهم عن مجاراته في عامة كلامه هو الذي قعد بهم عن معارضة قرآنه. وإذا لا يكون هذا العجز حجة لكم على قدسية الأسلوب القرآني كما لم يكن حجة عندكم على قدسية الأسلوب النبوي.

⁷⁷ - تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل للباقلاني ص 170 - 171

فنجيب : أما أن محمداً - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان هو أفصح العرب، وكان له في هذه الفضيلة البيانية المقام الأول بينهم غير مزاحم، فذلك ما لا نماري - بل لا نمثري - فيه نحن ولا أحد ممن يعرف العربية غير أننا نسأل ما مبلغ هذا التفاوت الذي كان بينهم وبينه؟ أكان مما يتفق مثله في مجاري العادات بين بعض الناس وبعض في حدود القوة البشرية، أم كان أمراً شاذاً خارقاً للعادة بالكلية؟

فأما إن كان كما نعهد شبيهاً بما يكون في العادة بين البليغ و الأبلغ، وبين الحسن والأحسن، فلا شك أن هذا النحو من العلو إن حال بينهم وبين المجيء بمثل كلامه كله لم يكن ليحول بينهم وبين قطعة واحدة منه.

ولئن أعجزهم هذا القدر اليسير أن يحتدوه على التمام لم يكن ليعجزهم أن يتزلوا منه بمكان قريب. ألا وإنما قد أرخينا لهم العنان في معارضة القرآن بهذا أو ذاك، وأغمضنا لهم فيما يجيئوننا به أن يكون كلاً أو بعضاً، وكثيراً أو يسيراً، ومماثلاً أو قريباً من المماثل، فكان عجزهم عن ذلك كله سواء.

وأما إن قيل: إن التفاوت بينه - عليه السلام - وبين سائر البلغاء كان إلى حد انقطاع صلتهم به جملة؛ لاختصاصه من بين العرب ومن بين الناس بفطرة شاذة لا تنتسب إلى سائر الفطر في قليل ولا كثير إلا كما تنتسب القدرة إلى العجز، أو الإمكان إلى الاستحالة، فلا شك أن القول بذلك هو أخو القول بأن الإنسان ما ليس بإنسان، أو هو التسليم بأن ما يجيء به هذا الإنسان لا يكون من عمل الإنسان .

ذلك أن الطبيعة الإنسانية العامة واحدة، والطباع الشخصية تقع فيها الأشباه والأمثال في الشيء بعد الشيء وفي الواحد بعد الواحد؛ إن لم يكن ذلك في عصر ففي عصور متطاولة ، وإن لم يكن في كل فنون الكلام ففي بعض فنونه.

وكم رأينا من أناس كثيرة تتشابه قلوبهم وعقولهم وألسنتهم فتتوافق خواطرها وعباراتهم حيناً، وتتقارب أحياناً، حتى لقد يخيل إليك أن الروح الساري في القولين روح واحد، وأن النفس ها هنا هو النفس هناك. وكذلك رأينا من الأدباء المتأخرين من يكتب بأسلوب ابن المقفع وعبد الحميد، ومن يكتب بأسلوب الهمذاني والحوارزمي، وهلم جرا .

فلو كان أسلوب القرآن من عمل صاحبه الإنسان لكان خليقاً أن يجيء بشيء من مثله من كان أشبه بهذا الإنسان مزاجاً، وأقرب إليه هدياً وسمتاً، وألصق به رحماً، وأكثر عنه أخذاً وتعلماً، أو لكان جديراً بأصحابه الذين نزل القرآن بين أظهرهم فقرءوه واستظهروه؛ وتذوقوا معناه وتمثلوه، وترسموا خطواته واغترفوا من مناهله – أن يدنوا أسلوبهم شيئاً من أسلوبه على ما تقضي به غريزة التأسى، وشيمة نقل الطباع من الطباع، ولكن شيئاً من ذلك كله لم يكن.

وإنما كان قصارى فضل البليغ فيهم كما هو جهد البليغ فينا أن يظفر بشيء يقتبسه منه في تضاعيف مقالته ليزيدها به علواً ونباهة شأن.

بل نقول : لو كان الأسلوب القرآني صورة لتلك الفطرة الحمديّة لوجب على قياس ما أصلته من المقدمات أن ينطبع من هذه الصورة على سائر الكلام الحمدي ما انطبع منها على أسلوب القرآن؛ لأن الفطرة الواحدة لا تكون فطرتين، والنفس الواحدة لا تكون نفسين.

ونحن نرى الأسلوب القرآني فنراه ضرباً وحده، ونرى الأسلوب النبوي، فنراه ضرباً وحده لا يجري مع القرآن في ميدان إلا كما تجري محلقات الطير في جو السماء لا تستطيع إليها صعوداً، ثم نرى أساليب الناس فنراها على اختلافها ضرباً واحداً لا تعلق عن سطح الأرض، فمنها ما يحبو حبواً، ومنها ما يشدد عدواً، ونسبة أقواها إلى القرآن كنسبة هذه "السيارات" الأرضية إلى تلك "السيارات" السماوية!

نعم، لقد تقرأ القطعة من الكلام النبوي فتطمع في اقتناصها ومجاراتها كما تطمع في اقتناص الطائر أو مجاراته؛ ولقد تقرأ الكلمة من الحكمة فيشتبه عليك أمرها: أمن كلمات النبوة هي أم من كلمات الصحابة أو التابعين؟ ذلك على ما عملت من امتياز الأسلوب النبوي بمزيد الفصاحة ونقاء الديباجة وإحكام السرد.

ولكنه امتياز قد يدق على غير المنتهين في هذا الفن. وقد يقصر الذوق وحده عن إدراكه، فيلجأ إلى النقل يستعينه في تمييز بعض الحديث المرفوع من الحديث الموقوف أو المقطوع.

أما الأسلوب القرآني فإنه يحمل طابعاً لا يلتبس معه بغيره، ولا يجعل طامعاً يطمع أن يحوم حول حماه؛ بل يدع الأعناق، تشرئب إليه ثم يردّها ناكسة الأذقان على الصدور .

كل من يرى بعينين أو يسمع بأذنين إذا وضع القرآن بإزاء غير القرآن في كلفتي ميزان، ثم نظر بإحدى عينيه أو استمع بإحدى أذنيه إلى أسلوب القرآن، وبالأخرى إلى أسلوب الحديث النبوي وأساليب سائر الناس، وكان قد رزق حظ ما من الحاسة البيانية والذوق اللغوي فإنه لا محالة سيؤمن معنا بهذه الحقيقة الجليلة، وهي أن أسلوب القرآن لا يدانيه شيء من هذه الأساليب كلها»⁷⁸.

حديث : " وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ " ليس حصر المعجزة في القرآن و

حسب

استدل البعض بحديث : " ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة " على أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ليس له معجزة سوى القرآن و هذا خطأ.

وَالْمَعْنَى أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ أُوتِيَ مِنْ خَوَارِقِ الْمَعْجَزَاتِ مَا يَقْتَضِي إِيمَانَ مَنْ رَأَى ذَلِكَ مِنْ أَوْلَى الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى، لَا مِنْ أَهْلِ الْعِنَادِ وَالشَّقَاءِ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ، أَيُّ جُلَّةٍ وَأَعْظَمُهُ وَأَبْهَرُهُ، الْقُرْآنُ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا يَبِيدُ وَلَا يَذْهَبُ كَمَا ذَهَبَتْ مُعْجَزَاتُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَنْقَضَتْ بِإِثْقَاءِ أَيَّامِهِمْ، فَلَا تُشَاهَدُ، بَلْ يَخْبِرُ عَنْهَا بِالتَّوَاتُرِ وَالْإِحَادِ، بِخِلَافِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ مُعْجَزَةٌ مُتَوَاتِرَةٌ عَنْهُ، مُسْتَمِرَّةٌ دَائِمَةٌ الْبَقَاءِ بَعْدَهُ، مَسْمُوعَةٌ لِكُلِّ مَنْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ⁷⁹.

⁷⁸ - النبأ العظيم للدكتور محمد دراز ص 125 - 129

⁷⁹ - البداية و النهاية لابن كثير 257/6

و قال محمد الشامي - رحمه الله - : « كل نبي اختص بما يثبت دعواه من خوارق العادات حسب زمانه، فإذا انقطع زمانه انقطعت تلك المعجزة فخصّ كل نبي بما أثبت به دعواه من خوارق العادات المناسبة لحال قومه.

كقلب العصا ثعباناً في زمن موسى فكانت تلقف ما صنعوا، وإخراج اليد بيضاء و إنما كان كذلك؛ لأنه الغالب في زمانه السحر، إذ كان ماشياً عند فرعون فأتاهم بما هو فوقه فاضطرّهم إلى الإيمان به ولم يقع ذلك لغيره.

وفي زمن عيسى الطب، فجاءهم بما هو أعلى منه من إبراء الأكمه والأبرص بما ليس في قدرة بشر وهو إحياء الميت.

وأما النبي - صلى الله عليه وسلم - فأرسله في العرب العرباء أصل الفصاحة والبلاغة وتأليف الكلام على أعلى طبقاتها ومحاسن بدايتها باسم القرآن فأعجزهم عن الإتيان بأقصر سورة منه»⁸⁰

و قال د. سعيد بن وهف : « وليس المراد في هذا الحديث حصر معجزاته - صلى الله عليه وسلم - في القرآن، ولا أنه لم يؤت من المعجزات الحسيّة كمن تقدّمه، بل المراد أن القرآن

80 - سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد لمحمد الصالحى الشامى 412/9

المعجزة العظمى التي اختص بها دون غيره؛ لأن كل نبي أُعطيَ معجزة خاصة به، تحدّى بها من أُرسِلَ إليهم، و كانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه؛ ولهذا لما كان السحر فاشياً في قوم فرعون جاءه موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة، لكنها تلقف ما صنعوا، ولم يقع ذلك بعينه لغيره.

ولما كان الأطباء في غاية الظهور جاء عيسى بما حير الأطباء، من: إحياء الموتى، وإبراء الأكمه، والأبرص، وكل ذلك من جنس عملهم، ولكن لم تصل إليه قدرتهم.

ولما كانت العرب أرباب الفصاحة والبلاغة والخطابة جعل الله سبحانه معجزة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - القرآن الكريم الذي ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾.

ولكن معجزة القرآن الكريم تتميز عن سائر المعجزات؛ لأنه حجة مستمرة، باقية على مرّ العصور، والبراهين التي كانت للأنبياء انقرض زمانها في حياتهم ولم يبق منها إلا الخبر عنها، أما القرآن فلا يزال حجة قائمة كأنما يسمعها السامع من فم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ولا استمرار هذه الحجة البالغة قال - صلى الله عليه وسلم -: " فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة " ⁸¹.

81 - العروة الوثقى في ضوء الكتاب والسنة لسعيد وهف ص 49 - 50

فرية إنكار وقوع التحدي بالقرآن

قال الآمدي - رحمه الله - : « وأما إنكار تحديه بالقرآن للعرب وإفحامه ذوى الأدب فهو أيضا مما علم بالضرورة والتقل المتواتر كما علم وجوده وظهور القرآن على يده ولا حجة لإنكاره كيف والقرآن مشحون بقوارع من الآيات دالة على التحدي ونعى العرب مثل قوله : ﴿ فأتوا بكتاب من عند الله ﴾ ، ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ ، وقوله : ﴿ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ إلى غير ذلك من الآيات فكيف يُقال بإنكار وقوع التحدي؟! »⁸² .

فرية وجود من عارض القرآن لكن لم تشتهر معارضته

هناك من أعداء الإسلام من يقول بأن القرآن قد عورض لكن لم تشتهر معارضته، وهذه فرية يغني فسادها عن إفسادها قال الآمدي - رحمه الله - : « فإذا ثبت تحديه به العرب وأرباب الفضل منهم والأدب فلو وقعت المعارضة منهم لاشتهر ذلك و لتوفرت الدواعي

⁸² - غاية المرام في علم الكلام للآمدي ص 352

على نقله كما توفرت على نقل غيره إما على لسان المُوافق أو المُخالف إذ السُّكوت عن مثل هذا والتواطؤ على تركه مما تقضى العادة الجارية بإحاطته.

والمُدعى لذلك ليس هو في ضرب المِثال إلا كمن يدعى ظُهور نبي آخر بعد النبي - عليه السلام - أو وجود إمام قبل الأئمة الأربعة أو أن البحر نشف في بعض الأوقات أو الدجلة أو الفرات ولا يخفى ما في ذلك من الإبطال.

ولا يمكن أن يكون خوف السيف مانع من نقل ذلك وإظهاره في العادة كما لم يمنع دعوى المعارضة في كل زمان وإن كان ذلك لما في القرآن بل الواجب بالنظر إلى العادات ومقتضى الطباع النقل لمثل ما هو من هذا القبيل، ولو على سبيل الأسرار كما قد جرت به عادة الناس في التحدث بمساوى ملوكهم وإظهار معانيهم، وإن كان خوف السيف قائما في حقهم لاسيما وبلاد الكفار متسعة وكلمة الكفر في غير موضع شائعة فلو كان ذلك ممما له وقوع قد أشيع كما أشيع غيره مما ليس بموافق للدين ولا يتقبله أحد من المسلمين.

ولا جائز أن يُقال إن ترك المعارضة محمول على الإهمال أو على الغفلة عن كون المعارضة موجبة للإفحام أو على اعتقاد أن السيف أبلغ في دحره وردعه، وإبطال دعوته فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد كان يقرعهم بالعي⁸³، و يردد عليهم تعجيزهم في الأحياء، ويقول: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ مع أن العرب قد كانت في محافلها تتفاخر بمعارضة الركيك من الشعر وتتناظر في مجالسها بمقابلة السخيف من النشر.

⁸³ - يقرعهم بالعي أي بالعجز عن الإتيان بمثل القرآن

وَلَا مَحَالَةَ أَنْ الْقُرْآنَ فِي نَظَرٍ مِنْ لَهُ أَدْنَى ذَوْقٍ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ وَأَقْلَ نِصَابٍ مِنَ الْأُمُورِ الْأَدْبِيَّةِ لَا يَتَقَاصِرُ عَنْ فَصِيحِ أَقْوَالِ الْعَرَبِ وَبَدِيعِ فِصُولِهِمْ فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ بَلْ وَالْخَطْبِ.

فَكَيْفَ يَخْطُرُ بِعَقْلِ عَاقِلٍ أَوْ يَتَوَهَّمُ وَاهِمٌ أَنْ الْعَرَبَ مَعَ مَا أَتَوَّهُ مِنَ الْعَقْلِ الْغَزِيرِ وَمَنْ حَسَنَ التَّصَرُّفِ وَالتَّدْبِيرِ تَتَارَكُوا مُعَارِضَةَ الْقُرْآنِ إِحْسَاسًا بِهِ وَإِهْمَالًا أَوْ لَغْفَلْتِهِمْ أَنْ ذَلِكَ مِمَّا يَدْفَعُ الضَّرَرَ عَنْهُمْ أَوْ لِأَنَّ السَّيْفَ أَنْجَعُ وَأَوْقَعَ لَهُمْ مَعَ مَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ الْبَأْسِ وَعَظَمِ الْمِرَاسِ وَالْقُوَّةِ الْبَاهِرَةِ وَالعِزْمَةِ الْحَاضِرَةِ وَالنَّصْرَةَ الْحَاصِرَةَ وَهُمْ يُمَكِّنُهُمْ دَفْعَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِفِصْلِ أَوْ سُورَةٍ يَقُولُهَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْحَسْرَانِ الْمُبِينِ.

وَلَا نُنْكَرُ أَنَّ هَذِهِ الْمَثَلَاتِ وَوُقُوعَ هَذِهِ الْإِحْتِمَالَاتِ بِالنَّظَرِ إِلَى الْعَقْلِ وَإِلَى ذَوَاتِهَا مُمَكِّنَاتٌ لَكِنَّهَا كَمَا أَوْضَحْنَاهُ بِالنَّظَرِ إِلَى الْعَادَةِ مِنَ الْمُسْتَحِيلَاتِ «⁸⁴» .

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : « فَإِنْ قَالُوا مَا أَنْكَرْتُمْ أَنْ تَكُونَ الْعَرَبُ قَدْ عَارَضَتْهُ وَأَنْ يَكُونَ خَوْفُ سَيْفِكُمْ يَمْنَعُ مِنْ إِظْهَارِ مُعَارَضَتِهِ قِيلَ لَهُمْ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا ادْعَيْتُمُوهُ لَجَازَ نَقْلُهُ وَذِكْرُهُ وَذِكْرُ الْمَعَارِضِ وَالْمُتَوَلَّى لَهُ.

وَلَوْ جَبَّ بِمُسْتَقَرِّ الْعَادَةِ أَنْ يَغْلِبَ إِظْهَارُهُ عَلَى طِيهِ وَكُتْمَانِهِ حَتَّى يَكُونَ الْعِلْمُ بِهِ كَالْعِلْمِ بِالْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ عَرُوضُهُ وَإِنْ مَنَعَ الْخَوْفُ مِنَ النَّصِّ عَلَيْهِ وَالتَّبْيِينِ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ لَذَكَرَهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَحْدِثِهِمْ بَيْنَهُمْ إِذَا خَلَوْا وَجَالَسُوا مِنْ يَأْمَنُونَ سَيْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَجِبُ أَنْ

⁸⁴ - غاية المرام في علم الكلام للآمدي ص 353 - 354

يَضْطَرُّ إِلَيْهِ كَمَا يَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ الْأَسْبَابَ الْحَامِلَةَ عَلَى الْكُتْمَانِ وَالْكَذِبِ الْوَاقِعِينَ مِنَ السُّلْطَانِ
لِعَرَضٍ فِي الْحَمْلِ عَلَى ذَلِكَ مَعَ الْخَوْفِ مِنْهُ.

و كما يجب في مُسْتَقَرِّ الْعَادَةِ تَحْدِثُ النَّاسَ بَعْيُوبَ سُلْطَانِهِمْ وَجِبَابِرَتِهِمْ وَمَذْمُومَ الْخِصَالِ
الَّتِي فِيهِمْ وَإِنْ لَمْ يَنْقَلِ ذَلِكَ نَقْلًا ظَاهِرًا وَيَقَعِ تَفْصِيلُهُ وَالنَّصُّ عَلَيْهِ وَالْبَيَانُ لَهُ مِنْ كُلِّ رَجُلٍ
بِعَيْنِهِ وَإِذَا كُنَّا لَا نَعْلَمُ وَجُودَ الْمُعَارِضَةِ لِلْقُرْآنِ كَعَلَمِنَا لظُهُورِهِ مِنْ جِهَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَجَبَ سُقُوطُ مَا قَالُوا ⁸⁵.

و قال أبو بكر الباقلاني - رحمه الله - : « فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ مَا أَنْكَرْتُمْ أَنْ يَكُونَ الْقَوْمُ إِئْمًا
تَرَكُوا مُعَارِضَةَ الْقُرْآنِ لِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ النَّظَرِ فِي أَنْ مُقَابَلَتَهُ بِمِثْلِهِ مُوجِبٌ لِتَكْذِيبِ مَنْ أَتَى بِهِ
قِيلَ لَهُمْ فَهَذَا مِمَّا لَا نَظَرَ فِيهِ وَلَا تَأْمَلْ؛ لِأَنَّهُ لَا شُبُهَةَ عَلَى أَحَدٍ كَمَلِ عَقْلِهِ فِي أَنْ مِنْ قَالَ لَهُ
قَائِلٌ إِنَّكَ لَنْ تَقُومَ وَلَنْ تَقْدِرَ عَلَى الْقِيَامِ كَاذِبٌ إِذَا قَامَ وَقَدَرَ عَلَى الْقِيَامِ.

والأطفال المنتقصون يعلمون هذا فضلا عن قريش في وفارة عقولهم وجودة قرائحهم
ونحائزهم وصحة آدابهم وما وصفهم الله تعالى به من أنهم قوم خصمون والتماسهم من
الرسول - صلى الله عليه وسلم - آيات غير التي أتى بها حتى قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ
نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأُولُونَ ﴾ يَعْنِي الَّتِي سَأَلُوهَا.

⁸⁵ - تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل للباقلاني ص 172- 173

وَمَعَ قَوْلِهِمْ : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِلًا وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زَخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَفِيقِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ﴾ .

وَمَعَ مَا ذَكَرَهُ عَنِ الْيَهُودِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ مَعَ مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْإِلْحَادِ وَالتَّعْطِيلِ مِنَ الْإِحْتِجَاجِ وَ الْعِنَادِ فَكَيْفَ جَهْلٌ هَؤُلَاءِ أَجْمَعٍ وَلَمْ يُنْبِئِهِمْ بَعْضًا عَلَيْهِ لَوْلَا جَهْلُ السَّائِلِ عَنِ هَذَا .

وَيُقَالُ لِلْسَّائِلِ عَنِ هَذَا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَا أَنْكَرْتُمْ أَلَا يَكُونُ إِضْرَابُ السَّحَرَةِ وَ الْأَطْبَاءِ عَنِ مُعَارَضَةِ مُوسَى وَعِيسَى فِي آيَاتِهِمَا لِعَجْزِهِمْ عَنِ ذَلِكَ وَ إِنَّمَا صَدَفُوا عَنْهُ لِدَهَابِهِمْ فِي النَّظَرِ فِي أَنْ مُعَارَضَتَهُمَا تُؤَدِّي إِلَى تَكْذِيبِهِمَا وَلَا جَوَابَ عَنِ ذَلِكَ أَبَدًا «⁸⁶ .

رد يحيى بن حمزة - رحمه الله - على من يقول سلمنا تواتره إلى كافة الخلق، لكننا لا نسلم توفر دواعيهم إلى المعارضة، وبيان ذلك بأوجه ثلاثة : أما أولاً : فلعلهم اعتقدوا أن المعارضة لا تبلغ في قطع المادة وحسم الشَّغْبِ وإبطال أمره، مبلغ الحرب، فلا جرم عدلوا إلى الحرب.

وأما ثانياً: فلأننا لا نمنع أن يكونوا عدلوا إلى الحرب لأنهم لو عارضوا لكان الخلاف غير منقطع بوقوعها، لجواز أن يقول قوم: إنها معارضة، ويقول قوم آخرون: إنها ليست

⁸⁶ - تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل للباقلاني ص 174 - 175

معارضة، ويتوقف فريق ثالث، لالتباس الأمر فيه، فيشتد الخلاف ويعظم الخطب، وفي أثناء ذلك الخلاف لا يمتنع اشتداد شوكتته، فلأجل الخوف من ذلك، عدلوا إلى الحرب.

وأما ثالثا: فلأنه يحتمل أن يكون عدوهم عن المعارضة، لأن التحدي إنما وقع بمثله، ولم يعرفوا حقيقة المماثلة، هل تكون بالفصاحة، أو البلاغة، أو بالنظم، أو بهذه الأمور كلها، أو في الإخبار عن العلوم الغيبية، أو في استخراج الأسرار الدقيقة، أو غير ذلك مما يكون القرآن مشتملا عليه، فلهذا عدلوا عن المعارضة، فصح بما ذكرناه أن دواعيهم إلى المعارضة غير متوفرة لأجل هذه الاحتمالات التي ذكرناها.

فقال يحيى بن حمزة - رحمه الله - : « وجوابه أنا قد أوضحنا توفر دواعيهم إلى معارضته بما لا مدفع له إلا بالمكابرة، ويؤيد ما ذكرناه ويوضحه، أن الأمر المطلوب إذا كان لتحصيله طرق كثيرة وكانت معلومة في نفسها، ثم بعضها يكون أسهل وأقرب في تحصيل المقصود، فإننا نعلم من حال العاقل اختيار الطريق الأسهل، وقد علمنا بالضرورة أن أسهل الطرق في دفع من يدعى مرتبة عظيمة على غيره، معارضتها بمثلها إن كانت المعارضة ممكنة، ونعلم أن هذا العلم الضروري حاصل لكل العقلاء، حتى نعلم أن طفلا من الأطفال لو ادعى على غيره من سائر الأطفال شيلا من حجر، أو حفر جدول، أو رمى غرض، فإنهم يتسارعون إلى معارضته بمثل دعواه، وهذه الجملة تفيد توفر دواعي العرب على إبطال أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بمعارضة دعواه بمثلها لو كانت ممكنة لهم، فإذا كان هذا حاصلًا في حق الأطفال، فكيف من بلغ حالة عظيمة في الحنكة والتجربة!.

قولهم : أولا لعلمهم اعتقدوا أن المعارضة لا تحسم دعواه، قلنا هذا فاسد، لأنهم في استعمال الحرب غير واثقين بحصول المطلوب، لأنهم غير واثقين بالظفر عليه، بخلاف المعارضة، فإنهم ليسوا على خطر منها، لأنهم واثقون ببطلان أمره عند وقوعها.

و قولهم ثانيا: لو عارضوا لكان الخلاف غير منقطع بوقوعها، قلنا هذا فاسد أيضا: فإنه ليس الغرض هو حصول المماثلة من كل الوجوه، لأنه لا يدرك مماثلة الكلامين من جميع الوجوه إلا بالقطع بالاشتراك في كل الأحكام، وهذا مما يعلمه الله دون غيره، بل المقصود من التحدى، إنما هو الإتيان بما يظن كونه مثلا، أو قريبا من المثل، وأما ذلك وقوع الاختلاف بين الناس في كونه مثلا، أو غير مثل.

وقولهم ثالثا: إنهم لم يعرفوا حقيقة المثل الذى طلبه فيه المعارضة هل هو الفصاحة، أو الأسلوب، أو الإخبار عن علوم الغيب؟

قلنا هذا فاسد لأمرين، أما أولا فلأنه لو اشتبه عليهم لاستفهموه عما يريد، لكن الأمر في ذلك معلوم لهم، فلماذا لم يعالجوه في شيء من ذلك، لتحققهم أنهم لو أتوا بما يماثله، لبطل أمره، فسكوتهم عنه دلالة على تحققهم من ذلك، وأما ثانيا فلأن الرسول صلى الله عليه وسلم أطلق التحدي ولم يخصه بشيء من دون شيء، اتكالا منه على ما يعلم من ذلك بمجرد العادة و أطرادها في التحدي بين الشعراء والخطباء، فلأجل ذلك لم يكن محتاجا إلى تفسير المقصود⁸⁷.

رد يحيى بن حمزة - رحمه الله - على من يقول سلمنا توفر دواعيهم إلى المعارضة كما قلت، لكن لا نسلم ارتفاع المانع عن المعارضة كما قلت، فلم ينكرون على من يقول إنه منعهم عن المعارضة اشتغالهم عنها بالحروب العظيمة، فإن فيها شغلا عن كل شيء، أو يقول خوفهم من أصحاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأنصاره وأعوانه؛ لأن قوة الدولة والشوكة تمنع من ذلك، ولهذا فإن ابن عباس - رضي الله عنه - لم يمكنه إظهار مذهبه في العول أيام عمر خوفا من سطوته، ولا شك أن الخوف مانع عما يريد الإنسان في أكثر أحواله.

⁸⁷ - الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز 211/3-212

فرد عليهم يحيى بن حمزة - رحمه الله - قائلاً : « وجوابه من أوجه ثلاثة : أما أولاً: فلأن المعارضة للقرآن إنما هي من قبيل الكلام، والحرب غير مانعة من وجود الكلام، ولهذا فإنهم كانوا والحرب قائمة يتمكنون من الأشعار والخطب في المحافل، فكيف يقال إن الحرب مانعة من وجود المعارضة.

وأما ثانياً : فلأن الحرب لم تكن دائمة، وإنما كانت في وقت دون وقت، فلم لا يشتغلون بالمعارضة في أوقات الفراغ عن الحرب.

وأما ثالثاً : فلأنه عليه السلام ما كان يحارب كل العرب، ولا شك أن الفصحاء منهم كانوا قليلين، فكان الواجب على الشجعان الاشتغال بالحرب، وأن يقعد أهل الفصاحة للاشتغال بالمعارضة.

ومن وجه رابع : وهو أنه ما حاربهم قبل الهجرة فكان ينبغي لهم الاشتغال بالمعارضة، إذ لا حرب هناك قائمة بينهم وبينه.

ومن وجه خامس : وهو أنه كان يجب عليهم أن يقولوا إنك شغلتنا بالحرب عن معارضتك ، فاترك الحرب حتى نتمكن من معارضتك ، وهم لم يقولوا ذلك ولا خطر لأحد منهم على قلب، وفي هذا دلالة على أنه لا مانع لهم من المعارضة بحال⁸⁸.

وإن قيل لا يلزم من توفر الداعي وزوال الموانع وجود المعارضة، وعند هذا لا يكون تأخر العرب عن المعارضة دلالة على عجزهم عنها، لجواز كونهم قادرين عليها، وجوابه: أن القادر متى توفرت دواعيه على الفعل، ولم يكن هناك مانع فإنه يجب وقوعه⁸⁹.

88 - الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز 212/3

فرية مادام الناس يقدرّون على الإتيان ببعض كلمات القرآن فهم يقدرّون على الإتيان بكل

كلمات القرآن

يقول بعض أهل الباطل ما من أحدٍ إلّا وهو قادر على أن يأتي من القرآن بكلمة والكلمات والآية والآيات ومن كان قادراً على ذلك كان قادراً على كُله.

و الجواب عن هذه الشبهة ما قاله الأمدى : « وقدرة بعض الناس على الإتيان بما شابه منه كلمة أو كلمات لا توجب القدرة على ما وقع به الإعجاز وإلّا كان لكل من أمكنه الإتيان بكلمة أو كلمتين من نظم أو نثر أن يكون شاعراً ناثراً أو لا يقع الفرق بين الألكن⁹⁰ والألسن.

ولّا يخفى ما في ذلك من العبث والزلل فإننا نحس من أنفسنا العجز عن بعض ما نقل عن فصحاء العرب من نظم أو نثر وإن كُنّا لا نجد أنفسنا وقد رنا قاصرة عن الإتيان منه بكلمة أو كلمات.

89 - الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز 213/3

90 - الألكن هو من لا يستطيع إخراج بعض الحروف من مخارجها سواء كان لا ينطق بالحرف البتة أو ينطق به معيراً أو بزيادته أو تكراره .

بَلْ وَلَيْسَ هَذَا إِلَّا نَظِيرَ مَا لَوْ قِيلَ بِوَجُوبِ كَوْنِ الْجَبَلِ مَقْدُورًا حَمَلَهُ بِالنَّسْبَةِ إِلَيْنَا لَكُنْ بَعْضُهُ مَقْدُورًا إِذْ هُوَ زَيْفٌ وَسَفْسُطَةٌ ثُمَّ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مَقْدُورًا لَهُمْ لَبَادَرُوا إِلَى الْإِثْيَانِ بِهِ وَسَارَعُوا إِلَى دَفْعِ مَا تَحْدَى بِهِ»⁹¹.

و قال أبو بكر الباقلائي - رحمه الله - : «فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ فَإِذَا قَدَرَ الْعِبَادُ عِنْدَكُمْ عَلَى مِثْلِ الْكَلِمَةِ وَالْكَلِمَتَيْنِ وَالْحَرْفِ وَالْحَرْفَيْنِ فَمَا أَنْكَرْتُمْ أَنْ يَقْدُرُوا عَلَى مِثْلِ جَمِيعِهِ وَأَلَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ إِعْجَازٌ يُقَالُ لَهُ لَوْ وَجَبَ مَا قَلْتَهُ لَوَجَبَ إِذَا قَدَرَ النَّاسُ عَلَى مِثْلِ مَا سَأَلْتَ عَنْهُ أَنْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ شِعْرَاءَ وَخُطَبَاءَ وَأَصْحَابَ نِظْمٍ وَرِسَائِلَ لِقَدْرَتِهِمْ عَلَى الْكَلِمَةِ وَالْإِثْنَيْنِ وَهَذَا جَهْلٌ مِمَّنْ صَارَ إِلَيْهِ.

وَلَيْسَ يَجِبُ إِذَا تَعَذَّرَ عَلَى الْإِنْسَانِ نِظْمُ الْكَثِيرِ أَنْ يَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ نِظْمُ الْيَسِيرِ كَمَا لَا يَجِبُ إِذَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ شَرْبُ مَاءِ الْبَحَارِ وَالْأَنْهَارِ أَنْ يَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ شَرْبُ الْجُرْعَةِ وَالْجُرْعَتَيْنِ، وَإِذَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ الصُّعُودُ إِلَى السَّمَاءِ وَحَمْلُ الْجِبَالِ أَنْ يَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ قَطْعُ الذَّرَّاعِ إِلَى فَوْقِ الذَّرَاعَيْنِ وَحَمْلُ الرُّطْلِ وَالرُّطْلَيْنِ، وَإِذَا كَانَ حَمْلُ الْجِبَالِ وَالصُّعُودُ إِلَى السَّمَاءِ آيَةً لِمَنْ ظَهَرَ عَلَى يَدِهِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ نِظْمُ الْقُرْآنِ آيَةً لِمَنْ أَتَى بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نِظْمُ مَا دُونَ سُورَةِ مِنْهُ آيَةً لِأَحَدٍ»⁹².

فرية أن القرآن من تأليف محمد - صلى الله عليه وسلم -

⁹¹ - غاية المرام في علم الكلام للآمدي ص 354 - 355

⁹² - تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل للباقلاني ص 177

يردد بعض المغرضين أن القرآن الكريم من تأليف محمد - صلى الله عليه وسلم - و ليس من عند الله، و هذه فرية يغني فسادها عن إفسادها فالقران بشكله وعباراته وحروفه وما احتوى عليه من علوم ومعارف وأسرار وجمال بلاغي ودقة لغوية هو مما لا يدخل في قدرة بشر أن يؤلفه إذ عجز فصحاء اللغة عن الإتيان بمثله.

بالإضافة إلى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان أمياً، لا يقرأ ولا يكتب و لم يتعلم في مدرسة و لم يختلط بحضارة، و لم يبرح شبه الجزيرة العربية.

و كيف برجل أمي لا يستطيع القراءة ولا الكتابة، وقد عرف عنه هذا في قومه واشتهر به ثم مع هذا الوصف إذا به يأتينا بهذا القرآن الذي يحوي من العلوم والمعارف ما لم يعلم به جميع البشر عبر كل الأزمنة، فمن أين له ذلك إذا لم يكن نبياً مرسلًا من عند الله؟

و صدق الله القائل في القرآن : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (سورة العنكبوت الآية 48) أي : من معجزاتك البينة -أيها الرسول- أنك لم تقرأ كتابًا و لم تكتب حروفًا بيمينك قبل نزول القرآن عليك، وهم يعرفون ذلك، ولو كنت قارئًا أو كاتبًا من قبل أن يوحى إليك لشك في ذلك المبطلون، وقالوا: تعلمه من الكتب السابقة أو استنسخه منها⁹³.

ثم يؤكد الله - جل وعلا - على هذا المعنى، فيأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يذكر قومه بأنه أمي، وهم يعرفون عنه ذلك ويعرفون نشأته بينهم في محيط البيئة الأمية و أنه قد لبث فيهم أربعين عاماً ما كان يأتيهم بمثل هذا وما كان يستطيع، فأنى له الآن معرفة

⁹³ - التفسير الميسر

هذا العلم العظيم من تلقاء نفسه قال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (سورة يونس الآية 16) أي : قل لهم - أيها الرسول-: لو شاء الله ما تلوت هذا القرآن عليكم، ولا أعلمكم الله به، فاعلموا أنه الحق من الله فإنكم تعلمون أنني مكثت فيكم زمناً طويلاً من قبل أن يوحيه إليّ ربي، ومن قبل أن أتلوه عليكم، أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكير؟⁹⁴ .

وكيف يكون القرآن من عند محمد - صلى الله عليه وسلم -، وعندما يجبر ببعض الأخبار يجبر أنه ليس له طريق ولا وصول إلى هذا إلا بما آتاه الله من الوحي، كمثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (سورة القصص الآية 44) أي : وما كنت -أيها الرسول- بجانب الجبل الغربي من موسى إذ كلفناه أمرنا ونهينا، وما كنت من الشاهدين لذلك، حتى يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق.⁹⁵ .

ومثل قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (سورة ال عمران الآية 44) أي : ذلك الذي قصصناه عليك -أيها الرسول- من أخبار الغيب التي أوحاها الله إليك، إذ لم تكن معهم حين اختلفوا في كفالة مريم أيهم أحق بها وأولى، ووقع بينهم الخصام، فأجروا القرعة لإلقاء أقلامهم، ففاز زكريا عليه السلام بكفالتها.⁹⁶ .

94 - التفسير الميسر

95 - التفسير الميسر

96 - التفسير الميسر

وعندما أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - بقصة يوسف عليه السلام قال تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (سورة يوسف الآية 102) أي : ذلك المذكور من قصة يوسف هو من أخبار الغيب نخبرك به -أيها الرسول- وحيًا، وما كنت حاضرًا مع إخوة يوسف حين دبّروا له الإلقاء في البئر، واحتالوا عليه وعلى أبيه. وهذا يدل على صدقك، وأن الله يُوحِي إليك⁹⁷.

وإذ كانت هذه الآيات دالة على أن القرآن ليس من عند محمد - صلى الله عليه وسلم - فهي أيضا دالة على النبوة فهذه الأمور و الإخبارات المفصلة التي يفصلها تفصيلاً، لم يتمكن أهل الكتاب الذين في وقته ولا من بعدهم على تكذيبه فيها ولا معارضته من أكبر الأدلة على أنه رسول الله حق فلو كانت هذه الأخبار باطلة لكذبوه فهم أحرص الناس على تلقف أي شيء يصد الناس عن دعوته.

و لو كان القرآن تأليف محمد - صلى الله عليه وسلم - و أنه شاعر أو كاهن أو تقول القرآن فالناس أمام أمرين إما أن يأتوا بمثله و من هنا جاء التحدي و إما أن يعجزوا عن ذلك، وفي هذه الحالة يجب أن يعقلوا أنه معجز وأنه وحي من عند الله وأنه دليل على صدق النبوة.

ولو كان القرآن من عند محمد - صلى الله عليه وسلم - لوجدنا في القرآن حضوراً لشخصيته و مشاعره فالقرآن ليس نص فيزياء و لا نص رياضيات يغرق في الرموز بل هو نص يتحدث عن مشاعر و اعتقادات و حوادث و نظم مجتمعية و مثل هذا النوع من النصوص لا بد أن نجد فيها ملامح مؤلفها خاصة اللحظات الصعبة التي مر بها في حياته

⁹⁷ - التفسير الميسر

كلحظة موت زوجته خديجة حيث لا نجد أي ذكر لهذا الحدث في القرآن، ولا حتى بضع كلمات يث فيها محمد حزنه عليها.

وهو الذي كان مرهف الحس، وهو الذي حتى بعد سنوات طوال بعد موتها كان يذكرها فتدمع عيناه!!! فلما لم نجد حضورا لشخصيته و مشاعره في أحلك الظروف دل على أنه ليس من تأليفه، وكيف يكون القرآن من عند محمد صلى الله عليه وسلم، هناك آيات فيه معاتبه له قال تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى ﴾ (سورة عبس الآية 1 - 3)

و كيف يكون القرآن من عند محمد - صلى الله عليه وسلم - و قد تنزل الآية فتنقض عملا من أعمال النبي - صلى الله عليه وسلم - قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (سورة الأنفال الآية 67) أي : لا ينبغي لني أن يكون له أسرى من أعدائه حتى يبالغ في القتل؛ لإدخال الرعب في قلوبهم ويوطد دعائم الدين، تريدون -يا معشر المسلمين- بأخذكم الفداء من أسرى "بدر" متاع الدنيا، والله يريد إظهار دينه الذي به تدرك الآخرة. والله عزيز لا يُقهر، حكيم في شرعه⁹⁸.

و كيف يكون القرآن من عند محمد - صلى الله عليه وسلم -، و يأمر القرآن محمد بأن يقول لأتباعه ما لا يمكن أن يقوله لو أنه كان يؤلف الكلام تأليفا قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بَدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (سورة الأحقاف الآية 9).

⁹⁸ - التفسير الميسر

و كيف يكون القرآن من عند محمد - صلى الله عليه وسلم -، و القرآن مليء بالآيات الدالة على أن محمد - صلى الله عليه وسلم - رسول من رسل الله، وليس صاحب القرآن قال تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ (سورة ال عمران من الآية 144)، و قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (سورة الأحزاب الآية 40) و قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ (سورة محمد الآية 2) .

و كيف يكون القرآن من عند محمد - صلى الله عليه وسلم - و شتان بين أسلوب القرآن و أسلوب محمد - صلى الله عليه وسلم - فأسلوب النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - هو أسلوب معتاد للعرب في التخاطب، ولكنه على درجة كبيرة من أساليب البلغاء المعهودة أما أسلوب القرآن فهو أسلوب يخالف أساليب العرب المعتادة، و لا شبيه له من كلام العرب .

و لو خلطت سورة من سور القرآن أو آيات من آيات القرآن بمجموعة أخرى من كلام العرب لاستطعت أن تميز بسهولة بين القرآن و بين كلام العرب أما كلام النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - فيمكن أن يتشابه أسلوبه مع أسلوب كلام العرب البليغ ولذلك كثيرا ما توضع الأحاديث كذبا على لسان النبي - صلى الله عليه وسلم - و قد كثر الوضع في الحديث في الوعظ على السنة القصاص والوعاظ وعلى السنة العامة تبعا لذلك وانتشر في كتب الفقه والعقائد والتفسير والتاريخ والسير و المغازي و الوعظ، ولذلك كان التحقق من صحة الأحاديث يعتمد اعتمادا كبيرا على سند الحديث .

و من المتعذر على الشخص الواحد أن يكون له أسلوبان في بيانه يختلف أحدهما عن الآخر اختلافا كبيرا فهذا مما لم يعهد عند أهل الأدب بل إذا أراد أحد الكتاب أن يخرج عن الأسلوب الذي هو متميز فيه إلى أسلوب آخر غير متميز فيه فلا بد أن يظهر في أسلوبه غير المعهود عنه التكلف، ولا يمكن أن يتقن ذلك الأسلوب الثاني، فما بالنا بالتفاوت الكبير بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث؟!.

و نخلص من هذا أن القرآن الكريم لو كان من كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - لما وجدت آيات كثيرة تنص على أنه رسول و لما وجدت آيات كثيرة تنصدر بفعل الأمر قل و لما نزلت آيات كثيرة بعد طول انتظار و لما وجدت آيات كثيرة تعاتبه و عند مقارنة كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - بالقرآن نجد اختلافا كبيرا و كلام النبي استطاع بعض الناس معارضة بعضه أما القرآن فلم يستطع أحد معارضته، و لو كان القرآن من عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فلماذا يؤلف القرآن وينسبه إلى غيره؟!.

فرية اقتباس القرآن من كتب أهل الكتاب

يردد بعض المغرضين أن القرآن الكريم قد اقتبسه من كتب أهل الكتاب، وقد تعلم كتب أهل الكتاب من الراهب بحيرا عندما لقيه في الشام، و من ورقة بن نوفل الذي كان من متنصرة العرب العلماء بالنصرانية وأحد أقرباء خديجة - رضي الله عنها -، و عن الغلام الرومي الأعجمي الذي كان يعمل حدادا في مكة المكرمة، و هذه فرية ضعيفة يغني فسادها عن إفسادها و بطلانها إذ لو صح أن القرآن اقتبسه النبي - صلى الله عليه وسلم - من كتب أهل الكتاب لالتخذه أعداؤه من المشركين حجة لهم، بهدف الطعن فيه.

وهم الذين تعلقوا بأوهى التهم كزعمهم أنه تعلم من رومي حداد أعجمي، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ

عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿ (سورة النحل الآية 103) أي هذا الحداد الرومي أعجمي لا يحسن العربية، فليس بمعقول أن يكون هذا الأعجمي مصدراً لهذا القرآن الذي هو أبلغ نصوص العربية بل هو معجزة المعجزات ومفخرة العرب واللغة العربية.

و مما يدحض شبهة اقتباس القرآن من كتب أهل الكتاب أن النبي -صلى الله عليه وسلم - أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، ولم يثبت أنه رأى التوراة والإنجيل أو قرأ فيهما أو نقل منهما.

و مما يدحض شبهة اقتباس القرآن من كتب أهل الكتاب أن القرآن الكريم فضح اليهود والنصارى، وهتك أستارهم، وذمهم فكيف يكون مقتبساً منهم؟!.

و مما يدحض شبهة اقتباس القرآن من كتب أهل الكتاب أن أحكام الشريعة الإسلامية كانت تتدرّجاً حسب الحوادث، والوقائع، وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يتوقف في الحكم على بعض الأمور حتى يترل الوحي عليه، مما يدل على أنه ليس لديه علم سابق.

و مما يدحض شبهة اقتباس القرآن من كتب أهل الكتاب وجود اختلاف مع أهل الكتاب في كثير من الأحكام، وما حصل من توافق في بعض الأحكام لا يدل على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أخذ منهم، وتعلم على أيديهم، وإنما لكون اليهودية والنصرانية أصلهما صحيح يتفق مع أصول الإسلام، لولا ما اعتراهما من تحريفٍ وتغييرٍ وتبديلٍ.

و مما يدحض شبهة اقتباس القرآن من كتب أهل الكتاب أن في القرآن الكريم قصص لأنبياء وسابقين لا يعرفهم أهل الكتاب، كقصة صالح وهود وشعيب عليهم السلام كما أن في القصص القرآني تفاصيل غير موجودة في كتبهم، كمعجزات سيدنا عيسى - عليه السلام - ونفى صلبه وقتله، وتبرئة الأنبياء مما افتروه عليهم من خطايا و قبائح.

و لو كان مصدر القرآن بعض أهل الكتاب لكانوا هم الأحرى بالنبوة والرسالة و لماذا أخفوا أنهم مصدر القرآن، و لو كان هذا حقا لآخذهم جميع أعداء الإسلام في عصر النبوة لصد الناس عن الإسلام و هذا أيسر من قتاله أو التدبير لقتله - صلى الله عليه وسلم -.

وكيف يكون القرآن مصدره بعض أهل الكتاب و القرآن مليء بما يناقض ما عليه أهل الكتاب و يفضحهم و شتان بين أسلوب القرآن و أسلوب كتب أهل الكتاب الخرفة؟! و أسباب نزول الآيات تنفي التعلم المسبق للنبي - صلى الله عليه وسلم -، فأين كان معلموه المفترضون حين نزل عليه القرآن في غزواته، وهو بين أصحابه يجيب عن أسئلتهم!!؟

و قال أبو بكر الباقلاني : « مَعَ تِلَاوَتِهِ عَلَيْهِمْ فِي نَصِّ التَّنْزِيلِ قَوْلُهُ : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (سورة العنكبوت الآية 48)

وَلَوْ عَرَفُوهُ بِذَلِكَ أَوْ بِصُحْبَةِ أَهْلِ الْكُتُبِ وَنَقْلَةِ السَّيْرِ وَمَدَاخِلَةِ أَهْلِ الْأَخْبَارِ وَمَجَالِسَةِ أَهْلِ هَذَا الشَّانِ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ يَقُولُوا لَهُ هَذَا كَذِبٌ؛ لِأَنَّكَ مَا زِلْتَ مَعْرُوفًا بِصُحْبَةِ أَهْلِ الْكُتُبِ

ومجالستهم وقصدهم إلى مواضعهم ومواطنهم ومجاراتهم وألأخذ عنهم والاستفادة منهم
« 99 .

و قاصمة الظهر أن أول ترجمة عربية للكتاب المقدس عند أهل الكتاب ظهرت بعد وفاة
النبي - صلى الله عليه وسلم - بقرن من الزمان، وهي ترجمة أسقف أشبيليا يوحنا عام
724م، فالكتاب المقدس عند أهل الكتاب لم يكن متداولاً بين الناس زمن النبي - صلى الله
عليه وسلم -، فقد كان حكراً على بعض القساوسة

فرية لو كان الإتيان بكتاب ما معجزا لعجز البشر عن الإتيان بمثله لكان كتاب إقليدس
معجزا

يردد بعض المعرضين فرية تافهة لا حظ لها من النظر و العقل و هي لو كان الإتيان بكتاب
ما معجزا لعجز البشر عن الإتيان بمثله لكان كتاب إقليدس معجزا و دليلا على نبوته، و
الجواب أن كتاب إقليدس لا يعجز البشر عن الإتيان بمثله، ولا يصح فيه هذا التوهم و قد
ألف غيره كتبا مثل كتابه أما القرآن فلم يؤلف أحدا كتابا مثله و كتاب إقليدس ليس كتابا
خارقا للعادة و ليس المقصود من تأليفه التحدي و دعوى النبوة فهل توجه إقليدس
للمشتغلين في الرياضيات و الهندسة وتحداهم بكتابه؟! و عليه فليس كتاب إقليدس معجزا
و ليس دليلا على نبوة إقليدس.

⁹⁹ - تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل للباقلاني ص 168

و رحم الله الرافي حينما رد قول ابن الراوندي في كتاب (الفريد) : " إن المسلمين احتجوا لنبوة نبيهم بالقرآن الذي تحدى به النبي فلم تقدر على معارضته؛ فيقال لهم : أخبرونا : لو ادعى مدع لمن تقدم من الفلاسفة... مثل دعواكم في القرآن فقال: الدليل على صدق بطليموس أو إقليدس، إن إقليدس ادعى أن الخلق يعجزون عن أن يأتوا بمثل كتابه، أكانت نبوته تثبت؟ "

فقال الرافي ردا عليه : « قلنا: فأعجب لهذا الجهل الذي يكون قياساً من أقيسة العلم... وأعجب (للكلام) الذي يقال فيه: إن هذا كتاب وذلك كتاب فكلاهما كتاب؛ ولما كان كذلك فأحدهما مثل الآخر؛ ولما كان أحدهما معجزاً فالثاني معجز لا محالة.

وما ثبت لصاحب الأول يثبت بالطبع لصاحب الثاني، وما دمنا نعرف أن صاحب الكتاب الثاني لم تثبت له نبوة فنبوة صاحب الأول لا تثبت... لعمري إن مثل هذه الأقيسة التي يحسبها ابن الراوندي سبيلاً من الحجة وباباً من البرهان هي في حقيقة العلم كأشد هذيان عرفه الأطباء قط؛ وإلا فأين كتاب من كتاب؛ وأين وضع من وضع؛ وأين قوم من قوم؛ وأين رجل من رجل؟

ولو أن الإعجاز كان في ورق القرآن وفيما يخط عليه، لكان كل كتاب في الأرض ككل كتاب في الأرض ولا طرد ذلك القياس كله على ما وصفه كما يطرد القياس عينه في قولنا: إن كل حمار يتنفس، وابن الراوندي يتنفس، فابن الراوندي يكون ماذا...؟

ولو أن مثل هذه السخافة تسمى علماً تقوم به الحجة فيما يُحتج له ويبطل به البرهان فيما يُحتج عليه، لما بقيت في الأرض حقيقة صريحة ولا حق معروف ولا شيء يسمى باسمه
« 100 .

و الفرق بين كتاب إقليدس و كتاب الله كالفرق بين السماء و الأرض فقد تميز كتاب الله بعدوبة الألفاظ و فصاحة الكلمات و روعة التعبير أما كتاب إقليدس فلا.

و قد تميز كتاب الله بإرضائه العامة والخاصة ومعنى هذا أن القرآن الكريم إذا قرأته على العامة أو قرئ عليهم أحسوا جلاله وذاقوا حلاوته وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضي عقولهم وعواطفهم.

وكذلك الخاصة إذا قرأوه أو قرئ عليهم أحسوا جلاله وذاقوا حلاوته وفهموا منه أكثر مما يفهم العامة ورأوا أنهم بين يدي كلام ليس كمثل كلام لا في إشراقه وديباجته ولا في امتلائه وثروته.

و لا كذلك كلام البشر فإنه إن أَرْضِيَ الخاصة والأذكياء لجنوحه إلى التجوز والإغراب والإشارة لم يَرْضِ العامة لأنهم لا يفهمونه وإن أَرْضِيَ العامة لجنوحه إلى التصريح والحقائق العارية المكشوفة لم يَرْضِ الخاصة لتزوله إلى مستوى ليس فيه متاع لأذواقهم ومشاربهم وعقولهم¹⁰¹.

¹⁰⁰ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص 126

¹⁰¹ - مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني 313/2

و كتاب إقليدس لا يرضي كل الناس بل يرضي طائفة معينة من الناس.

و تميز كتاب الله بإرضائه العقل والعاطفة فالقرآن الكريم يخاطب العقل والقلب معا أما كتاب إقليدس فيخاطب العقل فقط.

و كلام الناس إن وفي بحق العقل بحس العاطفة حقها وإن وفي بحق العاطفة بحس العقل حقه وبمقدار ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر حتى لقد باتت العرف العام يقسم الأساليب البشرية إلى نوعين لا ثالث لهما أسلوب علمي وأسلوب أدبي فطلاب العلم لا يرضيهم أسلوب الأدب وطلاب الأدب لا يرضيهم أسلوب العلم.

و هكذا تجد كلام العلماء والمحققين فيه من الجفاء والعري ما لا يهز القلوب ويحرك النفوس وتجد في كلام الأدباء والشعراء من الهزال والعقم العلمي ما لا يغذي الأفكار ويقنع العقول ذلك لأن القوى العاقلة والقوى الشاعرة في بني الإنسان غير متكافئة وعلى فرض تكافئها في شخص فإنهما لا تعملان دفعة واحدة بل على سبيل البدع والمناوبة¹⁰².

و قد جمع القرآن بين الإجمال والبيان مع أنهما غايتان متقابلتان لا يجتمعان في كلام واحد للناس بل كلامهم إما مجمل وإما مبين؛ لأن الكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان وإما خفية المعنى تحتاج إلى بيان.

¹⁰² - مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني 315/2

ولكن القرآن وحده هو الذي انخرقت له العادة فتسمع الجملة منه وإذا هي بينة مجملة في آن واحد أما أنها بينة أو مبينة بتشديد الياء وفتحها فلأنها واضحة المغزى وضوحا يريح النفس من عناء التنقيب والبحث لأول وهلة فإذا أمنت النظر فيها لاحت منها معان جديدة كلها صحيح أو محتمل لأن يكون صحيحا وكلما أمنت فيها النظر زادتك من المعارف والأسرار بقدر ما تصيب أنت من النظر وما تحمل من الاستعداد على حد قول القائل :

يزيدك وجهه حسنا... إذا ما زدته نظرا

ولهذا السر وسع كتاب الله جميع أصحاب المذهب الحضر من أبناء البشر ووجد أصحاب هذه المذاهب المختلفة والمشارب المتباينة شفاء أنفسهم وعقولهم فيه وأخذت الأجيال المتعاقبة من مدده الفياض ما جعلهم يجتمعون عليه ويدينون به ولا كذلك البشر في كلامهم فإنهم إذا قصدوا إلى توضيح أغراضهم ضاقت ألفاظهم ولم تتسع لاستنباط وتأويل وإذا قصدوا إلى إجمالها لم يتضح ما أرادوه وربما التحق عندئذ بالألغاز وما لا يفيد¹⁰³.

و تميز القرآن بالقصد في اللفظ مع وفائه بالمعنى ومعنى هذا إنك في كل من جمل القرآن تجد بيانا قاصدا مقدرًا على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية دون أن يزيد اللفظ على المعنى أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من هداية الخالق ومع هذا القصد اللفظي البريء من الإسراف والتقتير تجده قد جلى لك المعنى في صورة كاملة لا تنقص شيئا يعتبر عنصرا أصليا فيها أو حلية مكملة لها كما أنها لا تزيد شيئا يعتبر دخيلا فيها وغريبا عنها بل هو كما قال الله : ﴿ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾.

¹⁰³ - مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني 323/2

ولا يمكن أن تظفر في غير القرآن بمثل هذا الذي تظفر به في القرآن بل كل منطبق بليغ مهما تفوق في البلاغة والبيان تجده بين هاتين الغائيتين كالزوج بين ضرتين بمقدار ما يرضي إحداهما يفضب الأخرى فإن ألقى البليغ باله إلى القصد في اللفظ وتخليصه مما عسى أن يكون من الفضول فيه حمله ذلك في الغالب على أن يفض من شأن المعنى فتجيء صورته ناقصة خفية ربما يصل اللفظ معها إلى حد الإلغاز والتعمية.

و إذا ألقى البليغ باله إلى الوفاء بالمعنى وتجلية صورته كاملة حمله ذلك على أن يخرج عن حد القصد في اللفظ راكبا متن الإسهاب والإكثار حرصا على أن يفوته شيء من المعنى الذي يقصده ولكن ينذر حينئذ أن يسلم هذا اللفظ من داء التخممة في إسرافه وفضوله تلك التخممة التي تذهب ببهائه ورونقه وتجعل السامع يتعثر في ذبوله لا يكاد يميز بين زوائد المعنى وأصوله.

وإذا افترضنا أن بليغا كتب له التوفيق بين هاتين الغائيتين وهما القصد في اللفظ مع الوفاء بالمعنى في جملة أو جملتين من كلامه فإن الكلال والإعياء لا بد لاحقا به في بقية هذا الكلام ونذر أن يصادفه هذا التوفيق مرة ثانية إلا في الفينة بعد الفينة كما تصادف الإنسان قطعة من الذهب أو الماس في الحين بعد الحين وهو يبحث في التراب أو ينقب بين الصخور¹⁰⁴.

و القرآن قارئه لا يمل، وسامعه لا يمجه، بل الإنكباب على تلاوته يزيده حلاوة، و ترديده يوجب له محبة و طلاوة، لا يزال غصنا طريا، و غيره من الكلام و لو بلغ في الحسن والبلاغة ما بلغ يمل مع التردد، و يعادى إذا أعيد، و كتابنا يستلذ به في الخلوات، و يؤنس

¹⁰⁴ - مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني 324/2

بتلاوته في الأزمات، وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك، حتى أحدث أصحابها لها لحونا وطرفا، يستجلبون بتلك اللحن تنشيطهم على قراءتها¹⁰⁵.

شبهة من يزعم أن عدم قدرة الناس على مجارة أسلوب القرآن ليس خصوصية للقرآن؛ لأن أسلوب كل قائل صورة نفسه ومزاجه فلا يستطيع غيره أن يحل محله

يقول الدكتور محمد بن عبد الله دراز - رحمه الله - : « سيقول السائل إذا انتهى معنا إلى هذا الموضوع: لقد أغلقتم عنا بهذا البيان باباً من الشك، ولكنكم لم تلبثوا أن فتحتم علينا منه باباً جديداً، ألم تقولوا لنا: إن هذه الصناعة البيانية ليست في الناس بدرجة واحدة، وإن القوى تذهب فيه متفاوتة على مراتب شتى، فما نرى إذاً علينا من حرج أن نعد الإعجاز الذي حدثتمونا عنه أمراً مشاعاً يجري في أساليب الناس كما يجري في القرآن.

ألا ترون أن كل قائل أو كاتب إنما يضع في بيانه قطعة من عقله ووجدانه على الصورة التي تمديه إليها فطرته ومواهبه؟ وأن اختلاف الناس في هذه الوسائل يتبعه البتة اختلاف طرائقهم في التعبير عن أغراضهم؟

105 - المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للقسطاني 247/2

إنكم لتستطيعون أن تحصوا في اللغة العربية صوراً كلامية بعدة الناطقين بها، بحيث لا تجدون كاتباً يكتب كما يكتب كاتب آخر على السواء، ولا قائلًا كذلك.

بل أنتم لا محالة واجدون عند كل واحد منهاجاً خاصاً في الأداء؛ فليس البدوي كالحضري، ولا الذكي كالغبي و ليس الطائش كالحليم، ولا المريض كالسليم. وليس الأدنى في هذا الباب يستطيع الصعود إلى الأعلى، ولا الأعلى يستطيع النزول إلى الأدنى.

بل المتشابهان فطرة ومزاجاً، المتساويان تربية وتعليماً قد يشربان من كأس واحدة ثم لا يتناطقان بالكلام على صورة واحدة .

فكيف تأمرون الناس أن يجيئوكم بمثل القرآن وهم لا يقدرّون أن يجيء بعضهم بمثل كلام بعض؟ وكيف تعدون عجزهم عنه آية على قدسيته وأنتم لا تعدون عجز كل امرئ عن الإتيان بأسلوب غيره آية على أن ذلك الأسلوب صنع إلهي محض لا كسب فيه للذي جرى على لسانه؟

أليس هذا القياس يسوغ لنا أن نفترض القرآن كلاماً بشرياً كسائر كلام البشر، غير أنه اختص أسلوبه بصاحبه كما اختص كل امرئ بأسلوب نفسه؟

وجوابنا لهذا القائل أن نقول له: لسنا نماريك في أن كلام المتكلم إنما هو صورة تملّيتها عليه فطرته ومواهبه، ولا في أن هذه الفطر والمواهب لتفاوتها عند أكثر الناس لا بد أن تترك أثرها من التفاوت في صورة كلامهم، ولا في أن تلك الفطر والمواهب إن تشابهت عند فريق

من الناس فأملت عليهم صوراً متشابهة من القول فإنها لا تخرجها في عامة الأمر صورة واحدة.

كل هذا نسلمه ولا ننكره، ولكنه لا يضرنا ولا يوهن شيئاً من حجتنا؛ ذلك أننا حين نتحدى الناس بالقرآن لا نطالبهم أن يجيئونا بنفس صورته الكلامية، كلا، ذلك ما لا نطمع فيه، ولا ندعو المعارضين إليه، وإنما نطلب كلاماً أيّاً كان نمطه ومنهاجه، على النحو الذي يحسنه المتكلم أيّاً كانت فطرته ومزاجه.

بحيث إذا قيس مع القرآن بمقياس الفضيلة البيانية حاذاه أو قاربه في ذلك المقياس وإن كان على غير صورته الخاصة، فالأمر الذي ندعوهم إلى التماثل أو المقاربة فيه هو هذا القدر الذي فيه يتنافس البلغاء، وفيه يتماثلون أو يتقاربون. وذلك غير المعارض والصور المعينة التي لا بد من الاختلاف فيها بين متكلم ومتكلم.

فإن عسر عليك أن تفهم كيف تجيء المماثلة مع هذا الاختلاف ضربنا لك مثلاً؛ قوماً يستبقون إلى غاية محدودة، وقد اتخذوا لذلك مجالاً واسعاً لا يزاحم بعضهم فيه بعضاً، ولا يضع أحدهم قدمه على موضع قدم صاحبه، بل جعل كل منهم يذهب في طريقه الخاص به موازياً لقرنه في المبدأ والوجهة.

ثم يكون منهم المجلي والمصلي، والمقفي والتالي، ويكون منهم من لا حظّ له في الرهان. ويكون منهم المتكافئون المتعادلون. وهكذا تراهم وهم مختلفو المنازل يقع بينهم التماثل كما يقع بينهم التفاضل بنسبة ما قطعه كل منهم من طريقه إلى الغاية المشتركة.

فكذلك المتنافسون في حلبة البيان يعتمد كل منهم إلى الغرض من الطريق التي يرضاها، وعلى الوجه الذي يستمليه من نفسه، ثم يقع بينهم التماثل أو التفاضل على قدر ما يوفون من حاجة البيان أو ينقصون منها، وإن اختلفت المذاهب التي انتحاهها كل منهم.

هب -إذًا- المدعويين لمعارضة القرآن فيهم الأكفاء والأنداء لنبي القرآن في الفطرة والسليقة العربية، أو من هم أكمل منه فيها، أو هبهم جميعًا دونه في تلك المتزلة. فأما الأعلون فسيجيئون على وفق سليقتهم بقول أحسن من قوله. وأما الأنداد فسيجيئون بشيء مثله. وأما الآخرون فلن يكبر عليهم أن يقاربوا ويحيثوا بشيء من مثله، وشيء من هذه المراتب الثلاث لو تم لكان كافيًا في رد الحجة وإبطال التحدي»¹⁰⁶.

كَيْفَ يَكُونُ الْقُرْآنُ مَعْجَزًا وَهُوَ غَيْرُ خَارِجٍ عَنِ حُرُوفِ الْمَعْجَمِ؟

قال أبو بكر الباقلائي: « فَإِنْ قَالُوا كَيْفَ يَكُونُ الْقُرْآنُ مَعْجَزًا وَهُوَ غَيْرُ خَارِجٍ عَنِ حُرُوفِ الْمَعْجَمِ الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا الْخَلْقُ مِنْ أَهْلِ الْفَصَاحَةِ وَالْعِي وَاللِّكْنَةِ قِيلَ لَهُمْ لَيْسَ الْإِعْجَازُ فِي نَفْسِ الْحُرُوفِ وَإِنَّمَا هُوَ فِي نَظْمِهَا وَإِحْكَامِ رِصْفِهَا وَكَوْنِهَا عَلَى وَزْنِ مَا أَتَى بِهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - »¹⁰⁷.

¹⁰⁶ - النبأ العظيم للدكتور محمد دراز ص 123 - 125

¹⁰⁷ - تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل للباقلاني ص 178

و قال الدكتور محمد بن عبد الله دراز - رحمه الله - : « شبهة من قد يظن أن القرآن إن كان معجزاً فليس إعجازه من ناحيته اللغوية؛ لأنه لم يخرج عن لغة العرب في مفرداته ولا في قواعد تركيبه فإن قال: قد تبينت الآن أن سكوت الناس عن معارضة القرآن كان عجزاً، وأنهم وجدوا في طبيعة القرآن سرّاً من أسرار الإعجاز يسمو به عن قدرتهم.

ولكني لست أفهم أن ناحيته اللغوية يمكن أن تكون من مظان هذا السر؛ لأني أقرأ القرآن فلا أجده يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية: فمن حروفهم رُكِّبَتْ كلماته. و من كلماتهم أُلِّفَتْ جملة وآياته، و على مناهجهم في التأليف جاء تأليفه .

فأي جديد في مفردات القرآن لم يعرفه العرب من موادها وأبنياتها؟ وأي جديد في تركيب القرآن لم تعرفه العرب من طرائقها ولم تأخذ به في مذاهبيها، حتى نقول: إنه قد جاءهم بما فوق طاقتهم اللغوية؟

قلنا له : أما أن القرآن الكريم لم يخرج في لغته عن سنن العرب في كلامهم إفراداً وتركيباً فذلك في جملته حق لا ريب فيه، وبذلك كان أدخل في الإعجاز، وأوضح في قطع الأعدار ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾.

وأما بعد، فهل ذهب عنك أن مثل صناعة البيان كمثل صناعة البنيان، فالمهندسون البنيان لا يخلقون مادة بناء لم تكن في الأرض، ولا يخرجون في صنعتهم عن قواعدها العامة، ولا يعدو ما يصنعونه أن يكون جدراناً مرفوعة، وسقفاً موضوعة، وأبواباً مشرعة، ولكنهم تتفاضل صناعاتهم وراء ذلك في اختيار أمتن المواد وأبقاها على الدهر، و أكنها للناس من الحر والقر.

و في تعميق الأساس وتطويل البنيان، وتخفيف المحمول منها على حامله، والانتفاع بالمساحة اليسيرة في المرافق الكثيرة، وترتيب الحجرات والأبهاء، بحيث يتخللها الضوء والهواء، فمنهم من يفي بذلك كله أو جلّه، ومنهم من يخل بشيء منه أو أشياء.. إلى فنون من الزينة والزخرف يتفاوت الذوق الهندسي فيها تفاوتًا بعيدًا.

كذلك ترى أهل اللغة الواحدة يؤدون الغرض الواحد على طرائق شتى يتفاوت حظها في الحسن والقبول، و ما من كلمة من كلامهم و لا وضع من أوضاعهم بخارج عن مواد اللغة وقواعدها في الجملة .

و لكنه حسن الاختيار في تلك المواد والأوضاع قد يعلو بالكلام حتى يسترعي سمعك، ويتلج صدرك، ويملك قلبك. وسوء الاختيار في شيء من ذلك قد يتزل به حتى تمجه أذنك، وتغشى منه نفسك، وينفر منه طبعك.

ذلك أن اللغة فيها العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، وفيها العبارة والإشارة والفحوى والإيماء، وفيها الخبر والإنشاء، وفيها الجمل الاسمية والفعلية، وفيها النفي والإثبات، وفيها الحقيقة والمجاز، وفيها الإطناب والإيجاز، وفيها الذكر والحذف، وفيها الابتداء والعطف، وفيها التعريف والتنكير، وفيها التقديم والتأخير، وهلم جرا..

ومن كل هذه المسالك ينفذ الناس إلى أغراضهم، غير ناكبين بوضع منها عن أوضاع اللغة جملة، بل في شعابها يتفرقون، وعند حدودها يلتقون.

بيد أنه ليس شيء من هذه المسالك بالذي يحمل في كل موطن، وليس شيء منها بالذي يقبح في كل موطن، إذًا لهُن الأمر على طالبه، ولأصبحت البلاغة في لسان الناس طعمًا واحدًا، وفي سمعهم نغمة واحدة. كلا، فإن الطريق الواحد قد يبلغك مأمّنك حينًا، ويقصر بك عن غايتك حينًا آخر.

ورب كلمة تراها في موضع كالحُرزة الضائعة ثم تراها بعينها في موضع آخر، كالدرّة اللامعة فالشأن إذًا في اختيار هذه الطرق أيها أحق بأن يسلك في غرض غرض، وأيها أقرب توصيلًا إلى مقصد مقصد.

ففي الجدال أيها أقوم بالحجة، وأدحض للشبهة، وفي الوصف أيها أدق مثيلًا للواقع، وفي موطن اللين أيها أخف على الأسماع وأرفق بالطباع، وفي موطن الشدة أيها أشد إطلاعًا على الأفتدة بتلك النار الموقدة، وعلى الجملة أيها أوفى بحاجات البيان وأبقى بطراوته على الزمان.

والأمر في هذا الاختيار عسير غير يسير؛ لأن مجال الاختيار كثير الشعب، مختلف الألوان في صور المفردات والتراكيب، والناس ليسوا سواء في استعراض هذه الألوان، فضلًا عن الموازنة بينها، فضلًا عن حسن الاختيار فيها، فرب رجلين يهتدي أحدهما إلى ما غفل عنه صاحبه، ويغفل كل منهما عما هدي إليه الآخر، ورب وجه واحد يفوتك ها هنا يعدل وجهين تحصلهما هناك، أو بالعكس.

وعن جملة الملاحظات التي يلاحظها القائل في قوله، تتولد صورة خاصة مثلها في هذه المركبات المعنوية مثل "المزاج" في تلك المركبات العنصرية المادية، وهذا "المزاج" هو الذي نسميه بالأسلوب أو الطريقة، وعلى حسبه يقع التفاوت في درجات الكلام وفي حظه من الحسن والقبول.

فالجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير له أشرف المواد، وأمسها رحماً بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به، بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة.

ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين. لا يوماً أو بعض يوم، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور، فلا المكان يريد بساكنه بدلاً، ولا الساكن يبغي عن منزله حوَّلاً.. وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان.

هذا مطلب له دليله، وإجمال له تفصيله، وليس من قصدنا أن نعجلك الآن بالبحث في أدلته وتفصيله، وإنما أردنا أن نزيح عنك هذه الشبهة لتعلم أن ليس كل كلام عربي ككل كلام عربي، وأن هذه الناحية اللغوية جديرة بأن تتفاوت فيها القوى نازلة إلى حد العجز، أو صاعدة إلى حد الإعجاز»¹⁰⁸.

كَيْفَ لَزِمَتْ حِجَّةُ الْقُرْآنِ غَيْرَ الْعَرَبِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ؟

¹⁰⁸ - النبأ العظيم للدكتور محمد دراز ص 118 - 121

قال أبو بكر الباقلاني : « فَإِنْ قَالُوا كَيْفَ لَزِمْتَ حِجَّةَ الْقُرْآنِ الْهِنْدِ وَالْتَرَكِ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ أَنْ مَا أَتَى بِهِ مَعْجَزٌ قِيلَ لَهُمْ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ إِذَا فَتَشَوْا عَلِمُوا أَنَّ الْعَرَبَ الَّذِينَ بَعَثَ فِيهِمُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانُوا أَفْصَحَ النَّاسِ وَأَقْدَرَهُمْ عَلَى نِظْمِ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ وَأَنََّّهُمْ النَّهَآيَةَ فِي هَذَا الْبَابِ .

وَأَنََّّهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَحْرَصَ النَّاسَ عَلَى تَكْذِيبِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَنَّهُ نَشَأَ مَعَهُمْ وَأَنََّّهُمْ يَعْرِفُونَ دَخِيلَتَهُ وَأَهْلَ مُجَالَسَتِهِ فِي ظَعْنِهِ وَإِقَامَتِهِ وَأَنَّهُ مَا كَانَ يَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا يَخْطُهُ بِيَمِينِهِ وَأَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَجْمَعَ تَحْدَاهُمْ بِمِثْلِهِ أَوْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ مُجْتَمِعِينَ أَوْ مُفْتَرِقِينَ فَعَجَزُوا عَنِ ذَلِكَ أَجْمَعٌ كَمَا أَنَّ حِجَّةَ مُوسَى وَعِيسَى - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - قَائِمَةٌ عَلَى مَنْ لَيْسَ بِسَاحِرٍ وَلَا طَبِيبٍ لِعَلْمِهِ بِأَنََّّهُمَا تَحْدِيَا أَطْبَ النَّاسِ وَأَعْظَمَهُمْ سِحْرًا بِمِثْلِ مَا أَتَى بِهِ فَعَجَزُوا عَنِ ذَلِكَ مَعَ الْحِرْصِ عَلَى تَكْذِيبِهِمَا وَالْإِتْيَانِ بِمِثْلِ مَا أَتَى بِهِ ¹⁰⁹ .

من أين يعلم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - تحدى العرب أن تأتي بمثله وطالبهم بذلك؟

¹⁰⁹ - تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل للباقلاني ص 181

قال أبو بكر الباقلاني : « فَإِن قَالَ قَائِلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَلِّ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَيَّنْ يَعْلَمُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحَدَى الْعَرَبَ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِهِ وَطَالِبُهُمْ بِذَلِكَ قِيلَ لَهُمْ يَعْلَمُ ذَلِكَ اضْطِرَارًا مِنْ دِينِهِ وَقَوْلُهُ كَمَا نَعْلَمُ وَجُودَهُ وَظَهْرَهُ وَكَمَا نَعْلَمُ وَجُودَ الْقُرْآنِ نَفْسَهُ اضْطِرَارًا .

هَذَا عَلَى أَنَّهُ فِي نَصِّ التَّلَاوَةِ نَحْوُ قَوْلِهِ : ﴿ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ ، و ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ وَهَذَا غَايَةُ التَّحْدِي وَالتَّقْرِيعِ وَقَدْ وَصَلَ قَوْلُهُ : ﴿ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ فَلَا مُتَعَلِّقَ لِأَحَدٍ فِي هَذَا الْبَابِ »¹¹⁰ .

كَيْفِيَّةُ إِطَالِ حِجَّةٍ مِنْ أَتَى بِكَلَامٍ مَنْظُومٍ وَزَعَمَ أَنَّهُ مِثْلُ الْقُرْآنِ

قال أبو بكر الباقلاني : « فَإِن قَالُوا كَيْفَ تَبْطَلُونَ حِجَّةَ مَنْ أَتَى بِكَلَامٍ مَنْظُومٍ وَزَعَمَ أَنَّهُ مِثْلُ الْقُرْآنِ وَعَرُوضُهُ قِيلَ لَهُ لَعَلَّمْنَا بَأَنَّهُ لَيْسَ بِمِثْلٍ لَهُ وَلَا مِنْ جِنْسِ نَظْمِهِ فَإِن قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ قَادِرَ فُلَيْاتٍ بِهِ لِنَرِيهِ أَنَّهُ خِلَافٌ لَهُ وَنَعْلَمُ ذَلِكَ بِعَجْزِ الْعَرَبِ أَيْضًا عَنْ مُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُمْ أَفْصَحُ الْفَصَحَاءِ وَأَبْلَغُ الْبُلْغَاءِ وَأَشْعَرُ وَأَخْطَبُ مِنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِمَّنْ تَكَلَّمَ بِلِسَانِهِمْ بَعْدَهُمْ فَتَعْلَمُ بِذَلِكَ تَعَذَّرَ مُعَارَضَتَهُ عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ »¹¹¹ .

فَرِيَّةُ أَنَّ الْقُرْآنَ شَعْرٌ أَوْ أَنَّ الْقُرْآنَ سِحْرٌ

¹¹⁰ - تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل للباقلاني ص 183

¹¹¹ - تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل للباقلاني ص 184

يريد بعض المغرضين أن يقدح في إعجاز القرآن فيقول القرآن ليس كلاماً معجزاً فما هو إلا ضرب من ضروب الشعر أو ضرب من ضروب السحر، و كل من له ذوق في اللغة و الفهم يعلم أن القرآن كلام منشور لكنه معجز ليس كمثلته كلام؛ لأنه صادر من متكلم قادر ليس كمثلته شيء.

وما هو بالشعر ولا بالسحر؛ لأن الشعر معروف لهم بتقفيته ووزنه وقانونه ورسمه والقرآن ليس منه.

ولأن السحر محاولات خبيثة لا تصدر إلا من نفس خبيثة ولقد علمت قريش أكثر من غيرهم طهارة النفس الحمديّة وسموها ونبهها إذ كانوا أعلم الناس به وأعرفهم بحسن سيرته وسلوكه.

وقد نشأ فيه وشب وشاب بينهم هذا إلى أن القرآن كله ما هو إلا دعوة طيبة لأهداف طيبة لا محل فيها إلى خبث ورجس بل هي تحارب السحر وخبثه ورجسه وتسمه بأنه كفر إذ قال : ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ .

ثم إن السحر معروف المقدمات والوسائل فليس بمعجز ولا يمكنه ولن يمكنه أن يأتي في يوم من الأيام بمثل هذا الذي جاء به القرآن ¹¹².

¹¹² - مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني 311/2

و قال ابن الوزير : « ولو كانت الفصاحة من مقدورات السحرة، وحيل حذاقهم المهرة لقدروا بذلك على معارضة القرآن، فكيف وقد عجزوا عن يسير البيان! فأكثرهم لا يعرف وزن بيت من أيّ الأوزان، ولا يدري كيف الجولان في هذا الميدان! فانظروا في هذه المعجزة العظيمة الباقية على مرّ الدهور الطويلة، التي أحرست مهرة الكلام من العرب وأسكنتهم وأردت فرسان البلاغة فنكستهم، أظهر الله به عجزهم، وأبطل به عزهم وعزّهم »¹¹³.

تفاهة معارضة مسيلمة و أمثاله للقرآن

قال الآمدي - رحمه الله - : « وَمِنْهُمْ¹¹⁴ من حملة فرط جهله وقصور عقله على المُعَارَضَةِ و الإتيان بـمِثْلِهِ كَمَا نَقَلَ من ترهات مُسَيْلِمَةَ في قَوْلِهِ : الفيل والفيل وَمَا أَدْرَاكَ مَا الفيل لَهُ ذَنْبٌ طَوِيلٌ وخرطوم وثيل.

وقوله : والزراعات زراعا فالحاصدات حصدا والطاحنات طحنا إلى غير ذلك من كلامه ولا يخفى ما في ذلك من الركاكة والفهامة وما فيه من الدلالة على جهل قائله وضعف عقله وسخف رأيه حيث ظن أن هذا الكلام الغث الرث الذي هو مضحكة العقلاء ومستهزأ الأدياء معارض لما أعجزت الفصحاء معارضته وأعيه الألباء مناقضته من حين البعثة إلى زماننا هذا »¹¹⁵.

113 - الرّوضُ الباسمُ في الذّبِّ عَنْ سُنَّةِ أَبِي الْقَاسِمِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - 592/2

114 - منهم الضمير يعود على الكفار

115 - غاية المرام في علم الكلام للآمدي ص 344

و قال عبد العزيز آل معمر - رحمه الله - : « ولقد رام بعض سخفاء العقول محاكاة بعض قصار المفصل، فأتى من الهذيان بالعجب العجاب ، كقول مسيلمة الكذاب اللعين : " يا ضفدع كم تنقين، أعلاك في الماء، وأسفلك في الطين، لا الماء تكدرين، ولا الشراب تمنعين ."

فلما سمع أبو بكر الصديق هذا الكلام قال: " إنه كلام لم يخرج من إل ". قيل: " الإل " بالكسر هو الله - تعالى - وقيل: " الإل " بالأصل: الجيد. أي لم يجئ من الأصل الذي جاء منه القرآن.

ولما سمع مسيلمة والنازعات قال: " والزراعات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، و الطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، و اللاقمت لقمماً ، لقد فضلتهم علي أهل الوبير، و ما سبقكم أهل المدر ".

وقال معارضاً لسورة الكوثر : " إنا أعطيناك الجواهر، فصل لربك وجاهر، إن مبغضك رجل كافر ".

وكقول الآخر: " ألم تر كيف فعل ربك بالحلبى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين شراسيف وحشا ".

وقال آخر: " الفيل وما الفيل وما أدراك ما الفيل، له ذنب وثيل، وشفر طويل، وإن ذلك من خلق ربنا لقليل ".

وهذا كلام فيه من السخافة ما لا يخفاء به على من لا يعلم، فضلا عما يعلم.

ثم جاء جماعة من المتأخرين ممن انتهت إليهم الرياسة في الفصاحة، فتعرضوا لمعارضته، كابن المقفع و المعري و المتنبى، ونظراء لهم ، فلم يأتوا إلا بما تمجده الأسماع ، وتنبؤ عنه الطباع، و نادى عليهم بالخزي و الانقطاع ، وصيرهم مثلة و سخرية و ضحكة إلى أن تاب أكثرهم، وأظهر ندمه ونسكه»¹¹⁶.

يقول محمد الزرقاني - رحمه الله - : « يذكر التاريخ أن مسيلمة الكذاب رغم أنه أوحى إليه بكلام كالقرآن ثم طلع على الناس بهذا الهذر إنا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر.

وبهذا السخف والطاحنات طحنا والعاجنات عجنا والخابزات خبزنا وأنت خير بأن مثل ذلك الإسفاف ليس من المعارضة في قليل ولا كثير.

وأي محاكاة البغاء من فصاحة الإنسان وأين هذه الكلمات السوقية الركيكة من ألفاظ القرآن الرفيعة ومعانيه العالية وهل المعارضة إلا الإتيان بمثل الأصل في لغته وأسلوبه ومعانيه أو بأرقى منه في ذلك؟»¹¹⁷.

و المتتبع لكلام من توهم أنه قد عارض القرآن كمسيلمة نجد كلامه لا يخلو من تهاهة و سفه فهو يأتي بآيات من القرآن الكريم فيسرق أكثر ألفاظها و يبدل بعض ألفاظها أو يأتي

¹¹⁶ - منحة القريب المحيب في الرد على عباد الصليب 435/2

¹¹⁷ - مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني 334/2

بكلام على وزن الكلمات القرآنية بألفاظ سوقية و معان سوقية فهذا من قبيل المحاكاة ، و ليست من المعارضة في شيء، ليست معارضة الكلام أن تحاكيه تأخذ كلمة وتضع بدلها كلمة أخرى وتستخدم نفس الوزن و التحدي كان بسورة من مثل القرآن في الألفاظ و المعاني و النظم و الجمال اللغوي و الجمال الصوتي، و لم يكن التحدي بكلام مسجوع.

و المعارضة أن تعتمد إلى معنى من المعاني فتؤديه نفسه بأسلوب آخر يوازي الأصل في بلاغته أو يزيد أي المعارضة هي أن تأتي بمقصود الشخص الذي قال الكلام الأول، تأتي بمقصوده و لكن بعبارات أفصح من يحاول ذلك في المعاني القرآنية فإنما يحاول محالاً، و التجربة أصدق شاهد.

وإني أسأل من يتوهم القدرة على معارضة القرآن رغم أن فصاحته لا شك أدنى بكثير من فصاحة العرب الأوائل لماذا لم تحاول قريش مع عنادها وإيذائها للنبي - صلى الله عليه وسلم - معارضة القرآن مع أنها أفصح قبائل العرب أو على الأقل من أفصح قبائل العرب، وكانت تعرف للكلمة قيمتها و كانت تعرف الكلام الفصيح من غيره و قد آوت المعلقات السبع وعلقتها بالكعبة!!؟

و لماذا لم تحاول قبائل العرب الأخرى كبنو سعد وحمير وغيرها من قبائل العرب المشهورة بالفصاحة معارضة القرآن!!؟

و كان العرب في الجاهلية ليس لهم ثقافة غير الشعر و النثر و الخطابة و التجارة فلماذا عجزوا عن معارضة القرآن ثم يأتي من لا فقه له باللغة فيزعم أنه عارض القرآن!!؟.

و الذي يقرأ قول مسيلمة : ((إنا أعطيناك الجواهر، فصل لربك وجاهر، إن مبعضك رجل كافر)) يجد أن مسيلمة - عليه من الله ما يستحقه - قد سرق كثير من ألفاظ سورة الكوثر فالكلام منحول من سورة الكوثر و بدل بعض الألفاظ و ليس في كلامه النظم الجميل و لا مسحة من جمال لغوي و لا مسحة من جمال صوتي و هذا الكلام لا يماثل القرآن في شيء و إنما هو ضرب من الاقتباس من القرآن مع التصرف.

و الذي يقرأ قول مسيلمة - عليه من الله ما يستحقه - : ((والزارعات زرعاً، و الحاصدات حصداً، و الذاريات قمحاً، و الطاحنات طحناً، و الخابزات خبزاً ، و الثارذات ثرداً ، و اللاقمات لقماً ، لقد فضلتهم علي أهل الوبر، و ما سبقكم أهل المدر))¹¹⁸ يجد أن مسيلمة قد أتى بألفاظ سوقية على وزن كلمات سورة النازعات، و قال الشعراوي - رحمه الله - : « هذا الكلام لوناً من هراء فارغ؛ لأن الحق إنما أنزل كلامه موزوناً جاذباً لمعانٍ لها قيمتها في الخبر »¹¹⁹.

و ما ذكره مسيلمة - عليه من الله ما يستحقه - من هذا الكلام الركيك في غاية التهافت، و لا يحمل أي معنى بلاغي لإيصال معنى مفيد و المعارضة بين كلامين إنما تكون معارضة إذا كان بينهما مقارنة ومدانة بحيث يلتبس أحدهما بالآخر أو يكون أحدهما مقاربا للآخر .

و يقول الدكتور محمد بن عبد الله دراز - رحمه الله - : « شبهة غرّ ناشئ يتوهم القدرة على محاكاة القرآن فأما إن كان مثار الشبهة عنده أنه زاول شيئاً من صناعة الشعر أو

¹¹⁸ - بعض العلماء ينسب هذه الكلمات للنضر بن الحارث كما في تفسير النسفي 522/1 ، والبحر المحيط 584/4 ، و تفسير

السمعي 127/2 ، و تفسير القرطبي 41/7

¹¹⁹ - تفسير الشعراوي 3796/6

الكتابة، وآنس من نفسه اقتداراً في البيان فوسوس له شيطان الإعجاب بنفسه والجهل بالقرآن أنه يستطيع الإتيان بمثل أسلوبه، فذلك ظن لا يظنه بنفسه أحد من الكبار المنتهين، وإنما يعرض - إن عرض - للأغرار الناشئين .

ومثل هذا دواؤه عندنا نصح نتقدم به إليه أن يطيل النظر في أساليب العرب، وأن يستظهر على فهمها بدراسة طرف من علوم الأدب، حتى تستحكم عنده ملكة النقد البياني، و يستبين له طريق الحكم في مراتب الكلام وطبقاته، ثم ينظر في القرآن بعد ذلك.

وأنا له زعيم بأن كل خطوة يخطوها في هذه السبيل ستزيده معرفة بقدره، وستحل عن نفسه عقدة من عقد الشك في أمره؛ إذ يرى هنالك أنه كلما ازداد بصيرة بأسرار اللغة، وإحساناً في تصريف القول، وامتلاكاً لناصية البيان، ازداد بقدر ذلك هضمًا لنفسه، وإنكاراً لقوته، وخضوعاً بكليته أمام أسلوب القرآن ، وهذا قد يبدو لك عجيبيًا، أن يزداد شعور المرء بعجزه عن الصنعة بقدر ما تتكامل فيها قوته ويتسع بها علمه.

ولكن لا عجب، فتلك سنة الله في آياته التي يصنعها بيديه: لا يزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها إلا إذعاناً لعظمتها وثقة بالعجز عنها. ولا كذلك صناعات الخلق، فإن فضل العلم بها يمكنك منها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها، ومن هنا كان سحرة فرعون هم أول المؤمنين برب موسى وهارون.

فإن أبي المغرور إلا إصراراً على غروره، وكبر عليه أن يُقر بعجزه وقصوره، دعواناه إلى الميدان ليحرب نفسه و يبرز قوته، و قلنا له : أخرج لنا أحسن ما عندك لننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين.

غير أننا نعظه بوحدة أخرى : ألا يخرج على الناس ببضاعته حتى يطيل الروية ويحكم الموازنة، وحتى يستيقن الإحسان والإجادة؛ فإنه إن فعل ذلك كان أدنى أن يتدارك غلظه ويواري سوءته، وإلا فقد أساء المسكين إلى نفسه من حيث أراد الإحسان إليها.

وإن في التاريخ لَعِبْرًا تَوَثَّرَ عن أناس حاولوا مثل هذه المحاولة؛ فجاءوا في معارضة القرآن بكلام لا يشبه القرآن ولا يشبه كلام أنفسهم؛ بل نزلوا إلى ضرب من السخف والتفاهة بادِّ عَوَارِهِ، باقٍ عَارُهُ وَشَنَارُهُ : فمنهم عاقلٌ استحيا أن يُتم تجربته، فحطم قلمه ومزق صحيفته.

ومنهم ماكر وجد الناس في زمنه أعقل من أن تروج فيهم سخافاته، فطوى صحفه وأخفاها إلى حين. ومنهم طائش برز بها إلى الناس، فكان سخرية للساخرين ومثلاً للآخرين.

فمن حدثته نفسه أن يعيد هذه التجربة مرة أخرى فلينظر في تلك العبر وليأخذ بأحسنها، ومن لم يستح فليصنع ما يشاء»¹²⁰.

و قال الدكتور محمد بن عبد الله دراز - رحمه الله - في نسف ما يردده بعض المغرضين من قدرة أحد من البشر الإتيان بمثل القرآن : « شبهة أديب متواضع ينسب هذه القدرة إلى غيره من الفحول وأما إن كان مدخل الشبهة عنده أنه رأى في الناس من هو أعلى منه كعباً في هذه الصناعة.

¹²⁰ - النبأ العظيم للدكتور محمد دراز ص 110 - 112

فقال في نفسه: "لئن لم أكن أنا من فرسان هذا الميدان، ولم يكن لي في معارضة القرآن يدان، لعل هذا الأمر يكون يسيراً على من هو أفصح مني لساناً وأسحر بياناً"

فمثل هذا نقول له: ارجع إلى أهل الذكر من أدباء عصرك فاسألهم هل يقدرّون أن يأتوا بمثله؟ فإن قالوا لك: "لو نشاء لقلنا مثل هذا" فقل: "هاتوا برهانكم!" و إن قالوا: "لا طاقة لنا به" فقل: أي شيء أكبر من العجز شهادة على الإعجاز؟

ثم ارجع إلى التاريخ فاسأله: ما بال القرون الأولى؟ ينبئك التاريخ أن أحداً لم يرفع رأسه أمام القرآن في عصر من أعصاره، و أن بضعة نفر الذين انغضوا رءوسهم إليه باءوا بالخزي والهوان، و سحب الدهر على آثارهم ذيل النسيان.

أجل، لقد سجل التاريخ هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن، و ما أدراك ما عصر نزول القرآن؟ هو أزهى عصور البيان العربي، وأرقى أدوار التهذيب اللغوي، وهل بلغت المجامع اللغوية في أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية في ذلك العصر من العناية بلغتها، حتى أدركت هذه اللغة أشدها؛ وتم لهم بقدر الطاقة البشرية تهذيب كلماتها وأساليبها؟..

و ما هذه الجموع المحشودة في الصحراء، وما هذه المناير المرفوعة هنا وهناك؟ إنها أسواق العرب تعرض فيها أنفس بضائعهم وأجود صناعاتهم؛ و ما هي إلا بضاعة الكلام، و صناعة الشعر والخطابة، يتبارون في عرضها و نقدها، و اختيار أحسنها والمفاخرة بها، و يتنافسون

فيها أشد التنافس ، يستوي في ذلك رجالهم ونساؤهم، وما أمر حسان والخنساء وغيرهما بخافٍ على متأدب.

فما هو إلا أن جاء القرآن، وإذا الأسواق قد انفضت، إلا منه، وإذا الأندية قد صَفرت، إلا عنه، فما قدر أحد منهم أن يُباريه أو يجاريه، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة، أو حذف كلمة أو زيادة كلمة، أو تقديم واحدة و تأخير أخرى؛ ذلك على أنه لم يسد عليهم باب العارضة بل فتحه على مصراعيه، بل دعاهم إليه أفرادًا أو جماعات.

بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدي في صور شتى، متهكمًا بهم متزلاً معهم إلى الأخف فالأخف : فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله، ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله، ثم بسورة واحدة من مثله، وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا، ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير موارد؛ فقال : ﴿لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾

وقال : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، فانظر أي إلهاب، وأي استفزاز! لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد في قوله : ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ ثم هددهم بالنار، ثم سواهم بالأحجار، فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الألداء، وأبابة الضيم الاعزاء.

وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سُلماً يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ، فما استطاعوا

أن يظهره وما استطاعوا له نقباً... حتى إذا استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الحتوف.

واستنطقوا السيوف بدل الحروف. وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعاً عن نفسه بالقلم واللسان.

ومضى عصر القرآن والتحدي قائماً فليجرب كل امرئ نفسه، وجاء العصر الذي بعده، وفي البادية وأطرافها أقوام لم تختلط أنسابهم، ولم تنحرف ألسنتهم، ولم تتغير سليقتهم، و فيهم من لو استطاعوا أن يأتوا هذا الدين من أساسه، ويثبتوا أنهم قادرون من أمر القرآن على ما عجز عنه أوئلهم، لفعلوا، ولكنهم ذلت أعناقهم له خاضعين، و حيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياهم من قبل.

ثم مضت تلك القرون، وورث هذه اللغة عن أهلها الوارثون، غير أن هؤلاء الذين جاءوا من بعد، كانوا أشد عجزاً وأقل طمعاً في هذا المطلب العزيز .

فكانت شهادتهم على أنفسهم مضافة إلى شهادة التاريخ على أسلافهم، و كان برهان الإعجاز قائماً أمامهم من طريقين : وجداني وبرهاني . ولا يزال هذا دأب الناس والقرآن حتى يرث الله الأرض و من عليها» ¹²¹.

¹²¹ - النبأ العظيم للدكتور محمد دراز ص 112 - 114

فرية أن القرآن من تأليف الجن

يدعي بعض المغرضين أن القرآن الكريم من تأليف الجن و هذا فرية باطلة فكما يوجد في الإنس من يحقدون على الحق مع العلم بأنه الحق، فيتمنّون لو أمكنهم إفساد صفة الإعجاز في القرآن بأيّ وسيلة ممكنة، كذلك يوجد في الجن من يحقدون مثل هذا الحقد، ويتمنّون مثل هذا التمنيّ.

فلما لم نر إنسانا أوحى إليه من قبل أحد الجان بمثل القرآن، أو بمثل بعض منه، علمنا بدليل الواقع المشاهد أنه ليس من تأليف الجان ولا من إيجائهم¹²².

هل وصل خبر التحدى بالقرآن إلى كل العالم وهل يلزم من عجز بعض الخلق عجز كل الخلق؟

رد يحيى بن حمزة - رحمه الله - على من يقول سلمنا وقوع التحدي، ولكن هل وصل خبر التحدي إلى كل العالم، أو إلى بعضه، وباطل أن يكون واصلا إلى كله، لأننا نعلم بالضرورة أن أهل الهند والصين والروم، وسائر الأقاليم البعيدة، ما كانوا يعلمون وجود محمد - صلى الله عليه وسلم - في الدنيا، فضلا عن أن يقال: إنهم عالمون بتحديه بالقرآن، وباطل أن يكون واصلا إلى بعضهم، لأنهم ولو عجزوا عن المعارضة فإنه لا يكفي في صحة دعوى النبوة، عجزهم عن معارضته، لأنهم بعض الخلق، وعجز بعض الخلق لا يكون عجزا

¹²² - من روائع القرآن لمحمد سعيد البوطي ص 130

لجميعهم، وإلا لزم في بعض الحذاق في صناعته إذا تحدى أهل قريته، ثم عجزوا عن ذلك، أن يكون نبيا لمكان دعواه، وهذا ظاهر الفساد وهذا يبطل ما ذكرتموه من التحدي بالقرآن .

فقال يحيى بن حمزة - رحمه الله - : « وجوابه من وجهين : أما أولا : فلأنا نعلم بالضرورة أن العرب الذين قرع أسماعهم التحدي، وخوطبوا به «العين للعين» كانوا لا محالة أقدر على معارضته من غيرهم، لاختصاصهم بما لم يختص به غيرهم من سائر الأقاليم من الفصاحة والبلاغة، فلما عرفنا عجزهم كان غيرهم لا محالة أعجز من ذلك لما ذكرناه.

وأما ثانيا : فهب أن خير تحديّ بالقرآن ما وصل إلى كل العالم في زمانه، لكن لا شك في وصوله إليهم الآن، مع أنهم لم يعارضوه، وفي هذا دلالة على صحة نبوته، ويؤيد ما ذكرناه أنا نرى من يصنف كتابا في أي علم كان، ويظن أنه قد أتى فيه باليد البيضاء، فلا يلبث إلا مقدار ما يصل إلى الأقاليم والبلاد، ويحصل بعد ذلك ما يبطله ويدل على تناقضه وضعفه على القرب لأجل شدة الحرص على ذلك، وهذا ظاهر في جميع التصانيف كلها، فلو كان ثم معارضة توجد للقرآن، لكنت قد حصلت في هذه الأزمان المتمادية، والسنين المتطاولة، ولا شك في بلوغه هذه الأقاليم التي زعمتم، وفي هذا بطلان ما زعمتموه»¹²³.

فرية قد وقع في التاريخ معارضات كثيرة للقرآن فسقط التحدي

رد يحيى بن حمزة - رحمه الله - على من يقول قد وقع هناك معارضات للقرآن، فإن العرب قد عارضوه بالقصائد السبع وعارضه مسيلمة الكذاب بكلامه الذي يحكى عنه، وعارضه

¹²³ - الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز 208/3

النضر بن الحارث بأخبار الفرس وملوك العجم، وعارضه ابن المقفع من كلامه وقابوس بن وشمكير، والمعري، فكيف يقال إن المعارضة ما وقعت؟!.

فقال يحيى بن حمزة - رحمه الله - : « وجوابه هو أن النظار من أهل الفصاحة والبلاغة مجمعون على أن المعارضة بين الكلامين إنما تكون معارضة إذا كان بينهما مقارنة ومدانة بحيث يلتبس أحدهما بالآخر أو يكون أحدهما مقاربا للآخر، وكل عاقل يعلم بالضرورة أن هذه القصائد السبع ليس بينها وبين القرآن مقارنة ولا مدانة ، بحيث يشتهب أحدهما بالآخر.

وكيف لا وهذه القصائد من فن الشعر، و القرآن ليس من فنون الشعر في ورد ولا صدر، فلا يجوز كونها معارضة له، وأما ما حكى عن النضر بن الحارث، فإنما نقل حكايات ملوك العجم، وليس من أسلوب القرآن، فلا يكون معارضا له.

وأما ما يحكى عن مسيلمة الكذاب فهو بالخلاعة أحق منه بالمعارضة، لتزول قدره، وتمكنه في الحماقة؛ لأن من حق ما يكون معارضا، أن يكون بينه وبين المعارض مقارنة ومدانة، بحيث يشتهب الأمر فيهما، فأما إذا كان الكلامان في غاية البعد والانقطاع، فلا يعد أحدهما معارضا للآخر¹²⁴.

فرية أن العرب ما عجزوا عن معارضة القرآن لكن تأخروا عن معارضة القرآن لعدم علمهم بما اشتمل عليه القرآن، من شرح حقائق صفات الله تعالى، والبعث والنشور وأحكام الآخرة، وأحوال الملائكة

¹²⁴ - الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز 213/3

قال يحيى بن حمزة - رحمه الله - : « لا يقال : فعل العرب إنما عجزوا عن معارضة القرآن ليس لأنهم غير قادرين عليها، وإنما تأخروا عن المعارضة، لعدم علمهم بما اشتمل عليه القرآن، من شرح حقائق صفات الله تعالى، والبعث والنشور وأحكام الآخرة، وأحوال الملائكة، وغير ذلك مما لا مدخل لأفهامهم في تعقله وإتقانه.

لأننا نقول هذا فاسد لأمرين : أما أولاً فهب أن العرب كانوا غير عالمين بحقائق هذه الأشياء، لكن اليهود كانوا بين أظهرهم وكان عليهم السؤال عنها، ثم يكسونها عبارات يعارضون بها القرآن.

وأما ثانياً فلأن اليهود أنفسهم كان فيهم فصحاء، فكان يجب مع علمهم بها أن يعارضوه، فلما لم تكن هناك معارضة لا من جهة اليهود، ولا من جهة غيرهم، دل على بطلانها وتعذرها»¹²⁵.

هذا و الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات و كتب ربيع أحمد حامدا لله و مصليا على نبيه
- صلى الله عليه وسلم - الاثنين 16 / ربيع الأول / 1434هـ، 28 / يناير / 2013م

¹²⁵ - الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز 213/3

1. الدليل على صدق نبوة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -
2. فرية أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن أمياً
3. كيفية التمييز بين الأنبياء وغيرهم من الناس
4. فرية المعجزة لا تدل على صدق النبوة؛ لأن ما كان خارقاً للعادة في زمان قد يكون اعتيادياً في زمان آخر
5. فرية أن دلائل النبوة غير القرآن لا يصح التمسك بها في إثبات نبوته - صلى الله عليه وسلم -
6. لماذا كان القرآن معجزةً لنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم -؟
7. من معجزات النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - غير القرآن و الرد على من ينكرها بدعوى أنها من نقل المسلمين
8. الفرق بين القرآن وغيره من المعجزات
9. فرية أن ما أتى به النبي - صلى الله عليه وسلم - من جنس كلام العرب إلا أنه أفصح منهم لتقدم النبي - صلى الله عليه وسلم - في البلاغة عليهم وليس؛ لأنه من عند الله، وهذا لا دليل فيه على الإعجاز
10. حديث: " وإِذَا كَانَ الَّذِي أَوْتِيَتْهُ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ " ليس حصر المعجزة في القرآن و حسب
11. فرية إنكار وقوع التحدي بالقرآن
12. فرية وجود من عارض القرآن لكن لم تشتهر معارضته
13. فرية مادام الناس يقدرّون على الإتيان ببعض كلمات القرآن فهم يقدرّون على الإتيان بكل كلمات القرآن
14. فرية أن القرآن من تأليف محمد - صلى الله عليه وسلم -
15. فرية اقتباس القرآن من كتب أهل الكتاب
16. فرية لو كان الإتيان بكتاب ما معجزاً لعجز البشر عن الإتيان بمثله لكان كتاب إقليدس معجزاً
17. شبهة من يزعم أن عدم قدرة الناس على مجازاة أسلوب القرآن ليس خصوصية للقرآن؛ لأن أسلوب كل قائل صورة نفسه ومزاجه فلا يستطيع غيره أن يحل محله

18. كَيْفَ يَكُونُ الْقُرْآنُ مَعْجَزًا وَهُوَ غَيْرُ خَارِجٍ عَنِ حُرُوفِ الْمَعْجَمِ؟
19. كَيْفَ لَزِمَتْ حِجَّةُ الْقُرْآنِ غَيْرَ الْعَرَبِ وَ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ؟
20. مَنْ أَيْنَ يَعْلَمُ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تَحَدَّى الْعَرَبَ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِهِ وَطَالِبُهُمْ بِذَلِكَ؟
21. كَيْفِيَّةَ إِبْطَالِ حِجَّةٍ مِنْ أَتَى بِكَلَامٍ مَنْظُومٍ وَزَعَمَ أَنَّهُ مِثْلُ الْقُرْآنِ
22. فَرِيَّةٌ أَنَّ الْقُرْآنَ شَعْرٌ أَوْ أَنَّ الْقُرْآنَ سِحْرٌ
23. تَفَاهُةٌ مَعَارِضَةٌ مَسِيلِمَةٌ وَ أَمْثَالُهُ لِلْقُرْآنِ
24. فَرِيَّةٌ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ تَأْلِيفِ الْجِنِّ
25. هَلْ وَصَلَ خَيْرُ التَّحَدِيِّ بِالْقُرْآنِ إِلَى كُلِّ الْعَالَمِ وَهَلْ يَلْزَمُ مِنْ عَجْزِ بَعْضِ الْخَلْقِ عَجْزُ كُلِّ الْخَلْقِ؟
26. فَرِيَّةٌ قَدْ وَقَعَ فِي التَّارِيخِ مَعَارِضَاتٌ كَثِيرَةٌ لِلْقُرْآنِ فَسَقَطَ التَّحَدِيُّ
27. فَرِيَّةٌ أَنَّ الْعَرَبَ مَا عَجَزُوا عَنْ مَعَارِضَةِ الْقُرْآنِ لَكِنْ تَأَخَّرُوا عَنْ مَعَارِضَةِ الْقُرْآنِ لِعَدَمِ عِلْمِهِمْ بِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، مِنْ شَرْحِ حَقَائِقِ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْبَعْثِ وَالنَّشُورِ وَأَحْكَامِ الْآخِرَةِ، وَأَحْوَالِ الْمَلَائِكَةِ